# كتـب الفقـه

# الكتـاب الثالـث

# فقـه العلـــم

obeikandl.com

obeikandl.com

# تمهيـــد
# تذكير بمعالم المنهج

بسم الله الرحمن الرحيم

**الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد،**

ففي الكتابين الماضيين: نحو فقه ميسّر معاصر... وفي أصول الفقه الميسّر: بيان وتفصيل لمنهجنا[1] الذي تبنيناه في كتابنا هذا الذي ننشده، ونسأل الله العون والسداد فيه، حتى نتمّه على ما يحب ويرضى: ولا بأس أن نذكر قارئنا هنا بالمعالم الأساسية لهذا المنهج متمثلاً في المبادىء أو الخطوات التالية:

١ ــ رغم إيماني بأن الفقه المنشود لإصلاح الأمة هو الفقه (بالمعنى القرآني) وهو ما يشمل فقه آيات الله في الكون وسننه في الخلق والمجتمع، وإيماني بأن الثقافة الإسلامية وحدة متماسكة، يتصل بعضها ببعض... رغم هذا رأيت أن نمضي في الفقه بمعناه الاصطلاحي، بما يضم: فقه الفرد، وفقه الأسرة، وفقه المجتمع، وفقه الدولة، وفقه العلاقات الدولية، وإن شئنا قلنا: فقه العلم والعبادة، وفقه الحلال والحرام، وفقه الأسرة (الأحوال الشخصية)

---

(١) وقد تعرضنا له كذلك في عدد من كتبنا مثل (الاجتهاد في الشريعة) و (الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط) و (الفتوى بين الانضباط والتسيّب) و (الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد) و (شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان).

وفقه المعاملات، وفقه القضاء والشهادات والدعاوى ونحوها، والفقه الجزائي الذي يعالج الجرائم والعقوبات النصية (الحدود والقصاص) والتعزيرية، وفقه السياسة الشرعية الذي يشمل قضايا الفقه الدستوري وفقه السياسة المالية، وفقه العلاقات الدولية، وما يتعلق بذلك.

أما (الفقه الأكبر) كما سماه الإمام أبو حنيفة، وهو (فقه العقيدة) فأولى به أن يُطرح مستقلاً، وإن كان يمكن أن يوضع في فقه الإسلام الكلي، ويُبدأ به، كما فعل ابن حزم في (المحلى) والغزالي في (الإحياء).

٢ ــ يدخل في هذا الفقه: فقه الآداب الشرعية مثل: أدب الأكل والشرب، أدب التزاور، أدب التحية، أدب المشي والطريق، أدب المجالس، أدب الحديث.. ونحوها.

ولا يدخل في ذلك: الأخلاق بمعناها الرباني مثل: الإخلاص، والتوكل، والشكر والصبر، والورع والزهد، والمراقبة والمحاسبة، والخوف والرجاء.. الخ، ومعناها الإنسان مثل: الصدق، والأمانة والعدل والإحسان والشجاعة والعزة والتواضع والحياء... إلخ. فهذه قد خصصنا لها سلسلة بعنوان (فقه السلوك) وأصدرنا فيها أربعة كتب هي: الحياة الربانية والعلم، والنية والإخلاص، والتوكل، والتوبة إلى الله، ولا تزال السلسلة مستمرة بتوفيق الله.

٣ ــ لا نعتمد في هذا الفقه تقليد مذهب معين ــ نوجب على أنفسنا اتباعه ــ ونعرض عن المذاهب الأخرى، وأقوال الصحابة والتابعين والأتباع وغيرهم ممن ليس لهم مذهب متبوع ولا منقرض، فلم يلزمنا الله تعالى ولا رسوله اتباع مذهب فلان أو علان، إنما ألزمنا اتباع الكتاب والسنة، وما انبثق عنهما من أدلة، كالإجماع والقياس، والاستصلاح والاستحسان وغيره.

وتحررنا من التقليد والعصبية المذهبية لا يجعلنا نطعن في المذاهب، بل

نحن نحترمها كلها، ونحب أئمتها كافة، ونستفيد منها جميعاً: من اجتهاداتها وتخريجاتها وتعليلاتها وتطبيقاتها، متخيّرين منها ما هو أرجح دليلاً، وأوفق للزمان والمكان، وأليق بتحقيق مقاصد الدين ومصالح الدنيا.

٤ ــ أصول هذا الفقه هي الأصول المعتمدة لدى جمهور الأمة، مع وقفات تجديدية وترجيحية في بعض القضايا أشرنا إليها في موضعها فيما سبق. كما نُعني بالرجوع إلى المتقدمين أكثر من المتأخرين، سواء في الأصول أم في الفقه، فهم أوضح فكرة، وأسلس عبارة، وأدنى إلى التيسير، وأبعد عن التعسير. كما يتجلّى ذلك في فقه الصحابة ويقرب منهم تلاميذهم من التابعين.

٥ ــ وكذلك نهتم غاية الاهتمام بـ(مقاصد الشريعة) لأننا نؤمن بأن أحكام الشرع بصفة عامة معللة، ولها أهداف تقصد إليها، خلافاً للظاهرية الذين خالفوا جمهور الأمة في ذلك.

ولكن مقاصد الشرع إنما تعرف باستقراء نصوصه في محكم القرآن وصحيح السنة، وليس باتباع الأهواء، أو تحريف الكلم عن مواضعه، أو محاولة مسخ الإسلام، وإخراجه عن طبيعته ووسطيته وتميزه؛ ليتبع سنن غيره من الملل والنحل والفلسفات: شبراً بشبر، وذراعاً بذراع.

والمنهج الذي ارتضيناه هو: التوفيق العادل بين النصوص الجزئية، والمقاصد الكلية، فلا نضرب هذه بتلك، ولا نعمل طرفاً على حساب آخر. وهذه هي (الوسطية) التي نؤمن بها ولا نحيد عنها.

فلسنا مع عبيد الفكر الغربي، الذين يريدون أن نمحو النصوص، بدعوى العمل بمقصد الدين وروح الإسلام، ومجاراة التطور، ونحن نقول لهؤلاء: لماذا تطالبون الإسلام أن يتطور، ولا تطالبون التطور أن يسلم؟!

إن هناك منطقة فسيحة جداً في الشريعة الإسلامية، قابلة للتجديد

والاجتهاد والتطور في الأحكام، وهي ما قام على أدلة ظنية في ثبوتها أو في دلالتها أو فيهما معاً، وهي المنطقة الأوسع مساحة في الفقه الإسلامي ــ كما هو معلوم للدارسين ــ وهي معترك الآراء ومجال الاختلاف.

وهناك منطقة أخرى، لا تقبل التطور ولا الاجتهاد، فهي مغلقة، وهي التي قامت على نصوص قطعية الثبوت والدلالة، وهي منطقة ضيقة جداً ولكنها مهمة جداً؛ لأنها تجسد (الثوابت) التي تمثل الوحدة الفكرية والشعورية والعملية للأمة، ومنعها من الذوبان في غيرها، أو التفكك إلى أمم متباينة.

٦ ــ مصادرنا تتمثل في كتب الفقه بكل مذاهبه، وكتب الفقه العام، وفي كتب التفسير وخصوصاً ما يعني بالأحكام، وفي كتب الحديث وشروحه، وخصوصاً ما يتعلق منها بالأحكام، مثل كتب الإمام الطحاوي الحنفي، والإمام البيهقي الشافعي، (ومنتقى الأخبار) لابن تيمية الجَدّ، و (بلوغ المرام) لابن حجر، و (عمدة الأحكام) للمقدسي، وشروحها للشوكاني والصنعاني وابن دقيق العيد، وكذلك الكتب التي تعنى بأقوال الصحابة والتابعين والأتباع، مثل: مصنف عبد الرزاق الصنعاني، ومصنف ابن أبـي شيبة وغيرهما، وسنطبق هنا ما نادينا به من قديم من (الوصل بين الفقه والحديث) وإزالة الجفوة بينهما.

ونحن هنا ننظر أساساً إلى القول ولا ننظر إلى قائله، ونركز على ما يستند إليه من حجة واعتبار شرعي صحيح. فقد نأخذ بقول ضعّفه من قبلنا، ولكن جدّ ما قوّاه، ونشهر قولاً كان مهجوراً، ولكنه أصبح صالحاً لزماننا.

٧ ــ نحاول في هذا الكتاب ــ رغم أنه مكتوب لجمهور المثقفين وليس للمتخصصين وحدهم ــ أن يكون كتاباً علمياً حقاً، فلا نصدر حكماً إلا بدليله من الشرع أو العقل المهتدي بالشرع، ولا بد من توثيق الأدلة، بنسبة الآية إلى سورتها وذكر رقمها، وتخريج الحديث وبيان درجته باختصار، وبيان مصدره، ولا نكتفي بقولنا رواه أحمد أو أبو داود أو ابن حبان، وقد التزمنا ألا نعتمد

على حديث ضعيف، فهو مرفوض في الأحكام بإجماع.

وإنما عمدتنا الحديث الصحيح أو الحسن، ولو ذكرنا حديثاً دون ذلك فإنما هو للاستئناس لا للاستشهاد، ويكون الاعتماد على غيره من النصوص أو القواعد والمقاصد.

٨ ــ نجتهد في ربط الحكم بحكمته التي توخاها الشارع من ورائه، دون تكلف ولا افتعال، فنحن نؤمن أن وراء كل حكم حكمة قصدها الشارع، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وعلينا أن نكون حذرين من التعليلات الشاذة والغريبة، والتعليلات القاصرة، كما نجتهد في ربط الأحكام بعضها ببعض، حتى تتضح الصورة الكلية للشريعة، أما أخذ الحكم منفصلاً عن غيره، فقد يؤدي إلى ظلم الشريعة، وعدم فهمها على وجهها.

٩ ــ هدفنا في هذا الكتاب هو (تيسير الفقه) للمسلم المعاصر. وقد بينا (شرعية) هذا التيسير، وأساسها النظري من القرآن الكريم والحديث الشريف، وشدة حاجة الناس إلى التيسير في عصرنا خاصة، وذلك حتى نحبب الله تعالى إلى خلقه، ونسهل تكاليفه عليهم، في زمن غلبت فيه المادية والنفعية، وكثرت فيه المغريات بالفساد، والعوائق عن الصلاح.

وقد شرحنا المراد به (التيسير هناك، سواء كان تيسيراً في العرض والتناول حتى يسهل فهم الشريعة، أم كان تيسيراً في الأحكام حتى يسهل العمل والالتزام بها، من حيث العناية بالرخص، والتضييق في الإيجاب والتحريم، وترجيح الأيسر لا الأحوط لعموم الناس، والتيسير فيما تعم به البلوى، ورعاية الضروريات والظروف المخففة... الخ، وقد وضحناه بالتفصيل فليُرجع إليه.

وليس المراد بالتيسير لي أعناق النصوص ليًّا، لإسقاط واجب، أو تحليل حرام، أو تحريم حلال، فهذا تحريف، لا تيسير.

١٠ ــ الفقه الحقيقي هو الذي يجيب عن تساؤلات الناس، ويحل مشكلاتهم في ضوء أحكام الشريعة، وليس الذي يعيش في بطون الكتب والمراجع، أو يحيا أهله في صومعة منعزلة عن الناس. لهذا السبب سنجتهد أن نربط فقهنا بواقع العصر، وحياة الناس، وتيارات الثقافة والاقتصاد والسياسة وغيرها من المؤثرات في حياة البشر. وسنضرب صفحاً عن الأمور التي لم يعد لها وجود في عصرنا، مثل (الرق) وما يتصل به، وسنعمل قاعدة تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والعرف والحال. وسنأخذ من فقه علمائنا السابقين ما ينفعنا في هذا المجال دون أن نلتزم به دائماً، فهم قد أحسنوا حين اجتهدوا لزمنهم وبيئتهم، ونحن نحسن حين نجتهد لزمننا وبيئتنا.

وهذا هو ما اعتمدناه في كل ما كتبناه في الجانب الفقهي من (الحلال والحرام) إلى (فقه الزكاة) و (بيع المرابحة) و (فوائد البنوك) و (فقه الصيام) و (الفتاوى المعاصرة) و (فقه الدولة في الإسلام) و (السياسة الشرعية).

١١ ــ لن نقصر اهتمامنا على (جسم الفقه) وحده، بل نعني بـ (روحه) أيضاً، فلا نركز عنايتنا على الجانب المادي والشكلي والظاهري وحده، بل نُعنى بالروح والجوهر والباطن. وبهذا يتعانق الظاهر والباطن، والشكل والجوهر، والمادة والروح، والدنيا والآخرة.

بل هذا الجانب في الواقع هو الألصق بحقيقة الدين، الذي مهمته أن يصل الناس بربهم، ويذكرهم بمصيرهم وجزائهم، ويجعل نجاتهم منوطة بقلوبهم لا بجوارحهم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

وفي الحديث الصحيح: إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» رواه مسلم.

وبهذا يكون الفقه خيراً على صاحبه، وينطبق عليه الحديث الصحيح: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

١٢ ــ لن نلتزم في كتابنا هذا ــ دائماً ــ بتقسيم فقهائنا الأقدمين، فقد نزيد، وقد نحذف، وقد نقدم، وقد نؤخر، وقد نطيل في بعض ما قصروا فيه، وقد نقصر في بعض ما أطالوا فيه حسب أهمية الموضوع، ومدى الحاجة إليه.

ولذا سنبدأ بـ (العلم) لا بـ (الطهارة) ونبحث في (الطهارة) أموراً لم يبحثوها فيها عادة، ونضيف إلى (العبادات الركنية) ــ من الصلاة والزكاة والصيام والحج ــ عبادات أخرى مثل الذكر والدعاء، وتلاوة القرآن، ونشير إلى العبادات الباطنة، مثل المراقبة والمحاسبة والتوكل ونحوها.

وسنطيل في أشياء ذكروها تبعاً، أو أهملوها أصلاً مثل: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أو (الحسبة) ونحوها مما أخرجها بعضهم عن الإطار العام للفقه وأفرودها بالتأليف.

١٣ ــ سنتخير اللغة الواضحة السلسلة العذبة، متجنبين اللغة المعقدة، والمصطلحات الوعرة، وغموض متون الفقه، التي كانت تبالغ في الإيجاز إلى حد الألغاز، ليحفظها الطلاب، متحرين أن نجمع ما استطعنا بين دقة الفقيه، وإشراقة الأديب، وحرارة الداعية، فنحن نريد كتابنا هذا لتعليم الأحكام، كما نريده للدعوة إلى الإسلام، فهو كتاب علم ودعوة معاً.

**وبالله التوفيق، وهو وحده الهادي إلى أقوم طريق**



obeikandl.com

# فقــه العلــم

## لماذا بدأنا بالعلم:

جرت عادة فقهائنا من قديم أن يبدأوا مصنفاتهم الفقهية بكتاب (الطهارة) سواء كانت الطهارة الحسية: طهارة الثوب والبدن والمكان أم الطهارة الحكمية، التي تتمثل في الطهارة من الحدث الأصغر بالوضوء أم من الحدث الأكبر بالغسل.

وذلك لأن الطهارة هي أول شروط الصلاة، والصلاة هي أول العبادات الإسلامية، وأعظمها شأناً، وأهم الأركان العملية التي بني عليها الإسلام بعد الشهادتين.

ولكنا خالفنا فقهاءنا هنا، وبدأنا بكتاب العلم أو (فقه العلم) لا بـ (فقه الطهارة) مراعين للترتيب المنطقي، فالعلم سابق للعمل، كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: العلم إمام والعمل تابعه.

العلم هو الذي يبين لنا الحق من الباطل في المعتقدات، والمسنون من المبتدع في العبادات، والصحيح من الفاسد في المعاملات، والحلال من الحرام في التصرفات، والصواب من الخطأ في الأفكار، والمحمود من المذموم في المواقف والأفراد والجماعات.

ولهذا كان طلب العلم مقدماً على طلب العمل. وقال إمام الهدى عمر بن عبد العزيز: من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح[1].

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبد البر (١/ ٣٣).

وقال الحسن البصري: العامل على غير علم كالسائر على غير طريق. والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح. فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم. فإن قوماً طلبوا العبادة وتركوا العلم، فخرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا[1].

يعني بهؤلاء: الخوارج، الذين لم تكن آفتهم في قصور عبادتهم، فقد كانوا صواماً قواماً، حتى جاء في الحديث الصحيح: «يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم» ولكن آفتهم قصور الفقه، وعدم التعمق في فهم القرآن، فهم يقرأونه لا يجاوز حناجرهم، أي لا يدخل إلى عقولهم فيضيئها ويهديها.

ولهذا كان تقديم العلم واجباً، فهو الذي يهدي إلى صالح العمل، كما أنه الذي يهدي إلى الإيمان أيضاً، فالعلم هو دليل الإيمان، كما أرشد إلى ذلك القرآن حين يقول: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

هكذا بهذا الترتيب الذي دل عليه العطف بـ(الفاء) الدالة على الترتيب والتعقيب: ليعلموا، فيؤمنوا، فتخبت قلوبهم.. فالعلم يترتب عليه الإيمان، والإيمان يترتب عليه الإخبات والخشوع، ترتب الأثر على المؤثر.

ولأن العلم يسبق الإيمان والعمل، كان أول ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ــ ٥]. أمر فيها بالقراءة وكرره، والقراءة هي مفتاح العلم، ونوه بالقلم وهو أداة نقل العلم وتثبيته.

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ص (٨٢).

ثم نزل بعدها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ١ ــ ٧]. وكلها آيات آمرة بالعمل، وهو ترتيب فطري ومنطقي: أن يؤمر بالعمل بعد العلم.

وقد ذكر الإمام البخاري في كتاب العلم من صحيحه: (باب: العلم قبل القول والعمل). قال الحافظ ابن حجر في شرحه: قال ابن المنيّر: أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما، مصحح للنية، المصححة للعمل...

واستدل البخاري لما ذكره بجملة من الآيات والأحاديث، منها: قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾ [محمد: ١٩] فبدأ بالعلم، وثنى بالعمل... والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو متناول لأمته.

ومن هنا رأينا أن نبدأ بـ(فقه العلم) اهتداء بما أشار إليه القرآن من البداءة بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾.

وتأسياً بما صنعه الإمام البخاري، حيث قدم كتاب الإيمان، وكتاب العلم على العبادات من الطهارة والصلاة والزكاة وغيرها.

ولنا فيما صنعنا: سلف أيضاً، هو حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، حيث بدأ بـ(العلم) في كتابين له: أولهما (إحياء علوم الدين) وهو يشتمل على أربعين كتاباً في العبادات والمعاملات والمهلكات والمنجيات، وأول هذه الكتب: (كتاب العلم). وكذلك فعل في كتابه (منهاج العابدين) فقد جعل العقبة الأولى التي على السالك أن يقطعها في طريقه إلى الله: (عقبة العلم).

هذا وقد أصدرنا عدة كتب تتحدث حول العلم، منها: كتاب (الرسول

والعلـم) وكتـاب: (العقـل والعلـم فـي القـرآن الكـريـم) وكتـاب (السنـة مصـدراً للمعرفة والحضارة) وكتاب (الحياة الربانية والعلم). فليرجع إليها من أراد الزيادة في المعرفة: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].

* * *

obeikandl.com

# طلب العلم فريضة
# على كل مسلم ومسلمة

**الحث على التعلم:**

من أبرز تعاليم الإسلام: الحث على طلب العلم. فقد خلق الله الناس غفلاً من العلم، ومنحهم من فضله أدوات العلم ووسائله ليتعلموا، فإنما العلم بالتعلم. وهذه الوسائل هي: الحواس ــ وخصوصاً: السمع والبصر ــ والعقل. كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فهذه هي الأدوات الثلاث الرئيسية في التعلم:

السمع: فيما محوره الكلمة، وطريقه النقل.

والبصر: فيما يلاحظ ويشاهد ويجرب، وعلى أساسه قامت العلوم الطبيعية والتجريبية كلها.

والفؤاد أو العقل: فيما يحتاج إلى إعمال نظر، وترتيب فكر، للوصول من المقدمات إلى النتائج، ومن المعلول إلى العلة، ومن المعلوم إلى المجهول.

وقال الشاعر:

تعلم، فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهل!

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من سلك طريقاً

يطلب فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع»[2]. ومعنى وضع أجنحتها له: التواضع والخشوع توقيراً له وتعظيماً لحقه، أو أنها تفرشها وتبسطها له، لتحمله عليها حيث يريد، تيسيراً ومعونة من الله، أو أنها: تكف عن الطيران، لأنها تحفه في مجلس العلم، كما ورد في الصحيح.

وقد ورد: أن طلب العلم بمنزلة الجهاد في سبيل الله. روى الترمذي عن أنس مرفوعاً: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»[3].

كما تكاثرت النصوص من القرآن والسنة في التنويه بقدر العلم ومكانة العلماء، وفضل التعلم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال الإمام الغزالي: فانظر كيف بدأ سبحانه بنفسه، ثم ثنّى بملائكته، ثم ثلث بأولى العلم.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٦٩٩).

(٢) هو جزء من حديث أبي الدرداء الذي رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان، كما في صحيح الجامع الصغير (٦٢٩٧).

(٣) رواه الترمذي في العلم برقم (٢٦٤٩) وقال: حسن غريب ورواه بعضهم فلم يرفعه. قال في فيض القدير: فيه خالد بن يزيد اللؤلؤي، قال العقيلي: لا يتابع على كثير من حديث، ثم ذكر له هذا الخبر. وقال الذهبي: واه مقارب (٦/ ١٢٤) وقال الحافظ في (التقريب): صدوق يهم.

فالخشية ثمرة المعرفة، فمن عرف الله خشيه حق خشيته، بخلاف من يجهل مقام الله فهو أجْدَرُ أن لا يخشاه، كالطفل يمسك بالنار فتلسعه، لأنه لا يعرفها.

وقال ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلّمه»[1].

وقال الله تعالى في كتابه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[النحل: ٤٣ والأنبياء: ٧].

وقال ابن عباس: ذللت طالباً، فعززت مطلوباً!

وقال ابن المبارك: عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة!

وقال بعض الحكماء: إني لا أرحم رجالاً كرحمتي لأحد رجلين: رجل يطلب العلم ولا يفهمه، ورجل يفهم العلم ولا يطلبه!

وقال أبو الدرداء: لأن أتعلم مسألة أحب إليَّ من قيام ليلة!

وقال: العالم والمتعلم شريكان في الخير، وسائر الناس همج لا خير فيهم.

وقال أيضاً: كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً، ولا تكن الرابع فتهلك! والرابع هو المعرض عن العلم.

ومما حكي من وصايا لقمان لابنه: يا بني، جالس العلماء، وزاحمهم

---

(١) رواه البخاري عن عثمان بن عفان (٥٠٢٧).

بركبتيك، فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بوابل السماء[1].

## التأدب مع المعلم:

ومن آداب التعلم في الإسلام: توقير المعلم، والتأدب معه، حتى اشتهر بين المسلمين قولهم: من علمني حرفاً صرت له عبداً! وقد جاء في الحديث النبوي: «ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا»[2] أي يعرف له حقه.

وقد ذكر لنا القرآن تلك الرحلة التاريخية التي قام بها نبي من أولي العزم من الرسل ــ وهو موسى الذي اصطفاه برسالاته وبكلامه، وأنزل عليه التوراة فيها هدى ونور ــ ليطلب العلم عند رجل لم يذكر القرآن لنا اسمه، واختلف العلماء في شأنه: أهو نبي أم ولي؟ وحتى إن كان نبياً ــ وهو الصحيح ــ فليس في منزلة موسى قطعاً. ويبدو أن موسى قطع هذه الرحلة، هو وفتاه وخادمه على أقدامهما، فلم يذكر أنهما كانا يركبان دابة، ولذا قال فيها: ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: ٦٢].

وفي هذه القصة التي قصها علينا القرآن يتجلى لنا بعض الآداب المهمة للتعلم.

### أول هذه الآداب:

الحرص على العلم مهما يكن في طلبه من لأواء ومشقة وعناء. كما فعل

---

(١) ذكر هذه الآثار الغزالي في (الإحياء) وخرجها شارحه الزبيدي في (الإتحاف).

(٢) رواه أحمد عن عبادة بن الصامت بإسناد حسن، كما قال المنذري في الترغيب المنتقى (٦٩) والهيثمي في المجمع (١/ ٢٧) وزاد فيه «ويعرف لعالمنا حقه» ورواه الطبراني والحاكم إلا أنه قال: «ليس منا» (١/ ١٢٢، ١٢٣).

موسى عليه السلام في رحلته إلى «مجمع البحرين» وقد لقي فيها ما لقى من النصب.

**والأدب الثاني:**

التلطف مع العلم، وإظهار الاحترام والتوقير له، وهذا ما نلمسه بجلاء ووضوح في تعامل موسى عليه السلام مع هذا العبد الصالح، الذي عرف باسم «الخضر» عليه السلام، فقد قال له موسى بأدب التلميذ مع المعلم: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٦].

**والأدب الثالث:**

الصبر على المعلم، وهذا ما فعله موسى مع معلمه، فحين عرض عليه أن يتبعه ليعلمه مما علمه الله، قال المعلم: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: ٦٧ ــ ٧٠].

**والأدب الرابع:**

أن المؤمن لا يشبع من العلم، وأنه يطلب أبداً الزيادة منه، كما قال الله لخاتم رسله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤]. وهذا ما حرص عليه موسى: أن يضيف إلى علمه علماً آخر.

**تصحيح النية:**

وهناك أدب مهم نبهت عليه السنة النبوية، وهو تصحيح النية: أن يتعلم العلم يريد به وجه الله تعالى. وبذلك يغدو طلب العلم عبادة وجهاداً في سبيل الله. وفي الحديث الصحيح الشهير: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء

ما نوى»[1].

وعن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»... يعني ريحها[2].

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تعلَّموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا تماروا به السفهاء، ولا تَخَيَّروا به المجالس، فمن فعل ذلك، فالنار النار!»[3].

## العلم من المهد إلى اللحد:

والتعلم أو طلب العلم في الإسلام لا يقف عند حد معين، ولا عند سن معينة، وقد اشتهر عند المسلمين هذه الحكمة: «اطلب العلم من المهد إلى اللحد»، حتى ظنها بعض الناس حديثاً نبوياً، وما هي بحديث، ولكنها من مأثور التراث الإسلامي.

وكم رأينا من علماء السلف من يطلب العلم، وهو على فراش الموت، فيسأل بعض أصحابه أو أبنائه أن يقرؤوا عليه تفسير بعض الآيات القرآنية، أو يرووا له بعض الأحاديث النبوية، أو يذكروا له بعض المسائل الفقهية، أو

---

(١) رواه البخاري مفتتحاً به جامعه الصحيح عن أمير المؤمنين عمر بن الطاب.

(٢) رواه أبو داود (٦٥٨) وابن ماجه (٢٥٢) وابن حبان الموارد: (٨٩) والحاكم وصححه على شرط الشيخين (١/ ٨٥) ووافقه الذهبي وذكر النووي في (الرياض) أن إسناد أبي داود صحيح.

(٣) رواه ابن ماجه (٢٥٤)، (٢٥٩) وابن حبان الموارد: (٩٠) وقال البوصيري في الزوائد: رجال إسناده ثقات، وقال العراقي في تخريج الإحياء: إسناد ابن ماجه صحيح، وذكره الحاكم شاهداً، وصحح إسناده، وسكت عليه الذهبي (١/ ٨٦).

النحوية أو اللغوية، أو نحو ذلك، حتى يأتيه الموت، وهو يطلب العلم.

وكم رأينا من الشيوخ الكبار في السن، والكبار في العلم، من يطلب العلم، لا يستحي من شيخوخته، ولا يستحي من مكانته، ولا يجد في ذلك غضاضة ولا حرجاً، ليحقق الحديث الشريف: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا»[1].

وقد حكى لنا الحافظ ابن عبد البر في كتابه (جامع بيان العلم) في هذا الجانب صوراً، ووقائع شتى.

ولهذا كان أئمة الإسلام إذا قيل لأحدهم: إلى متى تطلب العلم؟ فيقول: إلى الممات.

قال نعيم بن حماد: سمعت عبد الله بن المبارك رضي الله عنه يقول ــ وقد عابه قوم في كثرة طلبه للحديث ــ فقالوا له: إلى متى تسمع؟ قال: إلى الممات.

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ: كنت أصوغ مع أبي ببغداد، فمر بنا أحمد بن حنبل، وهو يعدو، ونعلاه في يديه، فأخذ أبي بمجامع ثوبه، فقال: يا أبا عبد الله، ألا تستحي، إلى متى تعدو مع هؤلاء؟ (يعني: طلبة العلم)! قال: إلى الموت.

وقال عبد الله بن الطالقاني: أرجو أن يأتيني أمري، والمحبرة بين يدي، ولم يفارقني العلم والمحبرة!

---

(١) رواه البزار عن ابن عباس، وابن عدي عن أنس، وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦٦٢٤).

وسئل أبو عمرو بن العلاء: متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ قال: ما حسنت به الحياة!

وقيل لأحدهم: أيحسن بالشيخ أن يتعلم؟ قال: إن كان الجهل يقبح منه، فإن التعلم يحسن به.

وسئل سفيان بن عيينة: من أحوج الناس إلى طلب العلم؟ قال: أعلمهم، لأن الخطأ منه أقبح.

وقيل للمأمون: أيحسن بالشيخ أن يتعلم؟ فقال: إن كان الجهل يعيبه، فإن التعلم يحسن به.

وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة: أيحسن أن يطلب العلم؟ قال: إن كان يحسن به أن يعيش[1].

* * *

(١) انظر مفتاح دار السعادة: (١/ ٧٤) وجامع بيان العلم: (١/ ٩٥) وما بعدها.



obeikandl.com

## العلم المفروض طلبه فرض عين

من العلم ما يفترض طلبه، ومنه ما يستحب طلبه، ومنه ما يباح، ومنه ما يذم.

والعلم المفروض طلبه، منه ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية.

وفي الحديث المشهور على الألسنة، الذي رواه ابن ماجه وغيره: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1].

والمراد بالمسلم في الحديث: الإنسان المسلم، رجلاً كان أو امرأة. ولهذا أجمعوا على أن الحديث يشمل كل مسلم ومسلمة، وإن لم يرد لفظ: «ومسلمة» في رواية الحديث.

وقد اختلف شراح الحديث في تحديد «العلم» المفروض طلبه. فكل صاحب اختصاص في علم أوله على العلم الذي يشتغل به.

فالمتكلم (المتخصص في علم الكلام والعقائد) قال: هو علم العقائد الذي يعرف به توحيد الله، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذا أساس الدين.

---

(١) الحديث روي عن عدد من الصحابة بأسانيد ضعيفة. ولكن الحافظ السيوطي صححه بمجموع طرقه التي بلغت خمسين طريقاً، كما صححه في عصرنا المحدّث الألباني في تخريج كتابنا (مشكلة الفقر) وذكر السخاوي أن ابن شاهين رواه بسند رواته ثقات. وهو في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٩١٣)، (٣٩١٤).

والفقيه قال: هو علم الفقه الذي يعرف به الحلال والحرام، وتعرف به صحة العبادات، واستقامة المعاملات على منهج الشرع.

والمفسر قال: هو علم تفسير كتاب الله، الذي هو أساس الملة، ومرجع الأمة.

والمحدث قال: هو علم الحديث المبين للقرآن، المجسد لسيرة الرسول ﷺ وأقواله وأعماله وتقريراته.

والمتصوف قال: هو علم طريق الآخرة، والسلوك إلى الله تعالى، وكيفية تزكية النفس، وعلاج مداخل الشيطان إليها.. الخ.

والأصولي قال: بل هو علم أصول الفقه. الذي به يعرف الاستدلال فيما فيه نص، والاستنباط فيما لا نص فيه.

بل هناك من قال: علم العربية من النحو والصرف والبلاغة، التي بها يفهم القرآن والحديث.

بل هناك من قال: هو علم الطب الذي يعرف به الصحة والمرض، وقال: العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان، مقدم على علم الأديان. ذكره بعضهم، وفيه نظر، كما قال الزبيدي في شرح (الإحياء) وإيراده في فروض الكفايات أشبه كما سيأتي[1].

## رأينا في العلم المفروض على كل مسلم:

والذي أراه هنا: أن بعض هذه الأقوال خلطت بين العلم المفروض طلبه على كل مسلم ومسلمة، وهو ما يسمى (فرض العين) وبين العلم المفروض (فرض كفاية). فعلم التفسير والحديث وأصول الفقه وعلوم العربية، بل وعلم

---

(١) انظر: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ج ١: كتاب العلم.

الطب: لا بد منها، على مستوى الأمة، لا على مستوى الأفراد. فهي من فروض الكفاية بلا ريب. وفروض الكفاية هي: ما لا تستغني عنها الأمة في مجموعها، ولا بد أن يقوم بها عدد كاف من أبناء الأمة يسد الثغرة، ويلبي الحاجة، وإلا أثمت الأمة كلها.

**تعلم أصول التوحيد والعقيدة:**

والذي نؤكده هنا: أن على المسلم أن يتعلم من دينه ما يعرف به ربه معرفة تصل إلى حد اليقين، ويعرف به نبيه محمداً ﷺ، ويستيقن بصدق نبوته، وصحة رسالته، وأن القرآن الكريم منزّل عليه من عند الله تبارك وتعالى، بدلائل الإعجاز القرآني الكثيرة. ويعرف العقائد الأساسية في الإسلام: في الإلهيات، والنبوات، والغيبيات المتعلقة بالآخرة والعالم غير المنظور. وأن يأخذ ذلك أساساً من كتاب الله تعالى بما فيه من بينات تقنع العقل، وتنير القلب، بعيداً عن التقليد الأعمى، وعن المماحكات الجدلية، التي شاعت في علم الكلام، والتي أفسدت تفكير الخواص، واعتقاد العوام. وسر ذلك: تأثرها بفلسفة اليونان. ولهذا نادى المحققون والمجددون المسلمون بوجوب (ترجيح أسلوب القرآن على أساليب اليونان)[1].

والمطلوب هنا: أن تكون دراسة العقيدة مبنية على أساسين:

١ ــ القرآن الكريم، لا على أنه يتضمن أخباراً وأدلة نقلية فحسب، بل بما يتضمنه وما ينبه عليه من براهين، لإثبات التوحيد والنبوة، والجزاء الأخروي، وغيرها، فقد أنزله الله هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان، وقد ناقش الطوائف المخالفة من الملاحدة

(١) اسم كتاب بهذا العنوان للعلامة ابن الوزير اليمني (ت ٨٤٠هـ).

والمشركين وأهل الكتاب، ورد عليه بالأدلة العقلية، التي سماها القرآن (البينات).

والسنة النبوية مبينة لكتاب الله فيؤخذ من السنن الصحاح ما يبين القرآن، وما يسير في ضوئه.

٢ ـ العلوم الكونية الحديثة، بما تكشف للناس من أدلة تعين الناس ـ وخصوصاً المرتابين والمتشككين ـ على الوصول إلى اليقين في وجود الله تعالى وفي وحدانيته، وإبداعه في كونه، وإحسانه لخلقه، وتقرب منهم الحقائق الدينية من النبوة وأمور الآخرة، بما يحمله الكون من براهين ناصعة، تحقق وعد الله تعالى في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

## تعلُّم ما لا بد منه من الفقه والأحكام:

كما أن على المسلم أن يتعلم من أحكام الإسلام وشرائعه ما هو في حاجة إليه، من علم الطهارة، والصلاة اليومية ـ وهي الصلوات الخمس ـ والصلاة الأسبوعية، وهي صلاة الجمعة الواجبة على الرجال. والمراد: معرفة الأساسيات لا المسائل الغريبة والنادرة، ولا التفصيلات التي تترك للعلماء المتخصصين.

ومثل ذلك علم الصيام عندما يجيء رمضان، ومثله علم الزكاة عندما يملك نصابها، ويتعلم من أنواع الزكاة الأنعام أو الزروع والثمار. وإذا قدر على الحج وعزم عليه عرف أهم أحكامه.

كما عليه أن يعرف أهم أحكام الحلال والحرام التي يتعرض لها المسلم

في حياته: في المأكل والمشرب والملبس والزينة، والبيت، والعمل، وحياة الأسرة والمجتمع[1].

وعلى كل مسلم أن يعرف ما يخصه من أحكام، فالوالي يعرف أحكام الولاية، والتاجر يعرف أحكام التجارة، والطبيب يعرف أحكام الطب، والزوج يعرف حقوق الزوجية وواجباتها، وكذلك الزوجة، والأب يعرف أحكام الأبوة والبنوة، وكذلك الأم... وهكذا.

وعلى كل مسلم أن يعرف من علم الأخلاق والآداب الشرعية: ما يضبط به سلوكه بضوابط الشرع، فلا يحيد عما أمر الله به، ولا يتجاسر على ما نهى الله عنه، متحلياً بالفضائل، متخلياً عن الرذائل.

**التمذهب ليس بلازم شرعاً:**

ولا يلزمه أن يتبع مذهباً معيناً من المذاهب الأربعة أو غيرها، لأن اللازم شرعاً: ما ألزم به الله ورسوله في الكتاب والسنة، ولم يلزم الله ولا رسوله باتباع أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد، أو جعفر أو زيد، أو غيرهم. فمن التزم بمذهب أحدهم فقد ألزم نفسه ما لا يلزم، وضيق على نفسه في أمر وسع الله فيه. وخصوصاً إذا كان من أهل العلم، ويمكنه أن يبحث عن الحكم بدليله. فلا ينبغي لمثله أن يرضى بالتقليد، فقد أجمع العلماء المتقدمون على أن (العلم) هو معرفة الحق بدليله، وأن التقليد المطلق ليس علماً!

وإذا بحث العالم المستقل في أصول المذاهب، ووازن بينها، وارتضى أصول مذهب معين، لأنه رآها أصوب وأرجح، فلا حرج عليه في ذلك، ولا يكون مقلداً لإمام ذلك المذهب، بل وافق اجتهاده اجتهاد ذلك الإمام. وقد يدع

---

(١) وقد بينا ذلك في كتابنا (الحلال والحرام في الإسلام) الذي طبع أكثر من خمسين طبعة بالعربية، وترجم إلى عشرات اللغات بحمد الله.

مذهبه إلى غيره في بعض المسائل إذا أعوزه الدليل.

والأصل: أن العامي لا مذهب له، إنما مذهبه مذهب من يفتيه من العلماء الذين يسألهم. فقد يسأل في قضية زيداً وفي أخرى عمراً، وفي ثالثة بكراً، وهذا ما كان عليه الناس في عهد الصحابة والتابعين وأتباعهم، يسألون فيما يعن لهم من أمور: من تيسير لهم من ثقات العلماء، ولا يلتزمون بواحد فقط، يخصونه بالسؤال دون غيره. ولهذا لم يعرف (التمذهب) في عصرهم رضي الله عنهم. وهم القوم الذين يقتدى بهم فيهتدى، فهم خير قرون الأمة على الإطلاق، كما صحت بذلك الأحاديث.

وإنما كان العاميّ لا مذهب له، لأن اختيار مذهب معين يقتضي معرفة أصوله، والموازنة بينها وبين أصول غيره، وترجيحها على سواها، وهذه المعرفة والموازنة والترجيح لا يملكها العامي، إنما يملكها العالم الذي بلغ قدراً من النظر والاختيار، وعنده أهلية الترجيح.

وقد يقبل من الشخص العامي أن يتبع مذهباً من مذاهب الأئمة المعروفين إذا لم يجد في بلده غيره، كأن ينشأ في بلد كان أهله حنفية أو مالكية أو شافعية، أو حنبلية، فيتمذهب بمذهب علماء أهل بلده، على ألا يتعصب له بالحق وبالباطل. وإذا نصحه ناصح أمين من ثقات العلماء: أن مذهبه ضعيف في هذه المسألة، واطمأن إليه قلبه، فلا حرج عليه أن يدع مذهبه في هذه القضية، ويأخذ بالمذهب الراجح، وهذا ما يسر إمامه الذي يدعي اتباعه.

ولا يجوز لمن قلد مذهباً معتبراً أن يذم المذاهب الأخرى أو يطعن في أئمتها، فكلهم مجتهدون في معرفة الحق، والوصول إلى الصواب بقدر الاستطاعة وبذل الجهد، فمن أصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد، وهذا من فضل الله. كما أنهم جميعاً أئمة في تقوى الله تعالى، وفي الغيرة على

الإسلام، والشجاعة في الحق، وإيثار الآخرة على الأولى، كما تشهد بذلك سيرهم ومواقفهم رضي الله عنهم.

**تعلم أصول السلوك لطريق الآخرة:**

وعلى كل مسلم أن يعرف من علم طريق الآخرة والسلوك إلى معرفة الله تعالى ومحبته وتقواه ما يساعده على السير في الطريق، ويعينه على معرفة أمراض الأنفس وسبل علاجها، ويعرف مداخل الشيطان إلى القلب، ويقوي البواعث الخيرة في نفسه، حتى يزكي نفسه ويفلح. كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩] ويترقى حتى يصل إلى درجة الإحسان الذي عرفه النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١].

ويجب الحذر مما دخل هذا العلم من شوائب ومبتدعات، كدرت صفاءه، وأخرجته عن وسطية الإسلام في الجمع بين الدنيا والآخرة، والمزج بين المادة والروح، والتوفيق بين العقل والقلب، والموازنة بين المثال والواقع.

وينبغي الاعتماد هنا على أئمة السلوك المتقدمين، الذي يعتمدون في تربيتهم وتوجيههم إلى الكتاب والسنة، والحذر من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين[٢].

وهذه هي العلوم التي يجب على كل مسلم معرفتها، وهي ــ كما قلنا ــ موصولة بالكتاب والسنة، فمعرفة هذه العلوم تتضمن معرفة ما يلزم المسلم من التفسير والحديث.

---

(١) متفق عليه عن عمر من حديث جبريل المشهور.

(٢) قد شرعنا بتوفيق الله تعالى في كتابة سلسلة في (تيسير فقه السلوك) صدر منها أربعة أجزاء: «الحياة الربانية والعلم»، «والنية والإخلاص»، «والتوكل»، «والتوبة إلى الله»، وذلك حتى يستقيم السلوك في ضوء القرآن والسنة.

**علوم مكملة:**

وهناك علوم مكملة، ينبغي للمسلم أن يلم بها، مثل معرفة «السيرة النبوية» من كتاب معتمد على الأقل، ودراسة شيء من «علوم القرآن» و «علوم الحديث» أو مصطلحه، في كتب ميسرة. وإذا تعمق في العلم قرأ شيئاً من «أصول الفقه»، على أن تدرس هذه كلها في كتب ميسرة بلغة سهلة معاصرة. والأولى بالمسلم أن يقرأ هذه العلوم على عالم متمكن ثقة، حتى لا يقع في أفهام خاطئة، وهو لا يدري، ولا يجد من يصحح خطأه، وهذا ما حذر منه سلفنا الصالح حين قالوا: لا تأخذ العلم من صُحُفي، ولا القرآن من مصحفي. يعنون بالصحُفي: الذي تعلم من الصحف أي الكتب وحدها، ولم يتلق العلم من أهله وشيوخه، بحيث يحضر ويسأل ويناقش ويفهم، ويعنون بالمصحفي: الذي يتعلم القراءة من المصحف وحده، دون أن يأخذها على يد القراء المتقنين، كما تعلمنا نحن القرآن في الكتاب على أيدي القراء، لوحاً بلوح، نكتبه ونقرأ قبل أن نحفظه ثم نحفظه ونسمّعه، ثم نعيده ونثبته مرة بعد مرة. فمثل هذا (المصحفي) إن جاز له أن يقرأ لنفسه، لا يجوز أن يكون مقرئاً ومعلماً لغيره.

**ثمرة هذا التفقه في الدين:**

المهم أن يصل المسلم بمعارفه إلى حد يستطيع به: أن يزن أفكاره ومشاعره، وأقواله وأعماله، وعباداته ومعاملاته، وسائر أموره، بميزان الشرع، وأن يحكم على الأشخاص والجماعات والمواقف والسياسات بحكم الإسلام، ومن منطلق الإسلام، بعيداً عن إفراط الغلاة، وتفريط المقصرين، فعلى أساس الإسلام يحمد ويذم، ومن منظور الإسلام يحب ويكره، ويقترب ويبتعد، ومن أجله يرضى ويسخط ويصل ويقطع، ويسالم ويحارب، فما رضيه الشرع رضيه، وما رفضه الشرع رفضه، غير عابىء به ولا آسف عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا

﴿كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وبذا يصبح هواه تبعاً لما جاء به محمد ﷺ، وهذا هو تمام الإيمان.

## فرضية تعلم القراءة والكتابة في عصرنا:

ومن المفروض فرض عين في عصرنا (في رأيي واجتهادي): أن يتعلم المسلم القراءة والكتابة، ويزيل عن نفسه وصمة الأمية فقد أصبحت الأمية عائقاً للأمة عن التقدم والتنمية، وغدا التعلم من أسباب عزتها، وانتصارها على عدوها، وفي ميدان المنافسة الاقتصادية والحضارية في عصرنا لا مكان لأمة أكثرها من الأميين!

ومن القواعد الشرعية المقررة: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ومن الواجب أن تكون لأمتنا الصدارة والتقدم، وأن نملك أسباب القوة والتفوق، ولا يتم ذلك إلا بمحو أمية الأمة، وشيوع التعلم في أبنائها كافة، وبذلك تنافس الأمم الأخرى.

ولقد بدأ النبي ﷺ في محاربة الأمية في حياته من السنة الثانية من الهجرة، حين جعل فداء الأسير الكاتب: أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة، والواجب علينا اليوم أن نكمل المسيرة، وألا نتخلف في السباق الحضاري، وحتى لا تبقى أمتنا في ذيل القافلة، والمفترض أن تكون في مقدمة الركب، باعتبارها خير أمة.

## كيف يحصل المسلم العلم المفروض عليه؟

وهنا يطرح سؤال تجب الإجابة عنه، وهو: كيف يستطيع المسلم أن يحصّل العلم المفروض طلبه عليه؟ وأي الطرائق أنفع له؟

**اختلاف الطرائق باختلاف الحال:**

والجواب عن هذا السؤال يختلف باختلاف أحوال المسلم، فالمسلم القارىء المتعلم غير المسلم الأمي.

**التعلم عن طريق السماع:**

فيستطيع المسلم أن يحصل هذا العلم المفروض عليه، إما بالتلقي والسماع مشافهة من علماء ثقات في علمهم وتقواهم، وحسن فهمهم للدين وللواقع معاً، وهذا ما يلزم الأميين، وليس لهم خيار في غيره. واجتهاد المسلم هنا في اختيار العالم الذي يتلقى منه، ويجب أن يفرق المسلم بين العالم الواعظ الذي يأخذ منه الموعظة والتذكير، والعالم الفقيه الذي يتلقى عنه الأحكام والشرائع، فليس كل واعظ مؤثر، أو خطيب مفوه، أو عالم بالتفسير أو الحديث: يكون ثقة في فقهه وفتواه، فإن الله وزع المواهب والقدرات بين الناس، إلا من وهبه الله الجمع بين هذه الملكات والقدرات، وقليل ما هم. وعوام المسلمين ــ بل كثير من متعلميهم ــ يخلطون في هذا الأمر، فيحسبون الوعاظ البلغاء فقهاء في أحكام الشريعة، فيستفتونهم في أعوص المسائل، ويجيبهم هؤلاء حسب علمهم، فيقعون في أخطاء كثيرة وكبيرة، وهم لا يشعرون، ولو أنصفوا لقالوا لهم: اسألوا غيرنا، فنحن لا نعلم، ورحم الله امرءاً عرف حده، فوقف عنده، وقد حذر الحديث الصحيح المتفق عليه من الذين يُسألون، فيفتون بغير علم، فيَضلون ويُضلون.

ومن وسائل التثقيف في عصرنا: الشريط المسموع (الكاسيت)، وهو وسيلة مهمة وسريعة التأثير، ويمكن للإنسان أن يستخدمه وهو في سيارته، أو في محله، أو المرأة في مطبخها، أو غير ذلك دون أن يكلف جهداً غير الاستماع والتفهم.

ويضاف إلى ذلك في عصرنا: ما يبثه التلفاز والإذاعة من برامج دينية، وما يمكن أن يقدم عن طريق جهاز (الفيديو) من أشرطة مرئية ومسموعة، ويجب على المسلم الواعي أن يتخير ما يسمعه من هذه الأشرطة، فليس كل شريط ديني يحسن سماعه، فبعض هذه الأشرطة أشبه بالأغذية الفاسدة أو الملوثة بالاشعاع ونحوه، فهي في الواقع تضر أكثر مما تنفع، تهدم أكثر مما تبني، لأنها لا تقوم على علم موثق، وعلى أدلة شرعية صحيحة.

كما أن كثيراً منها يقوم على (المبالغة في الترهيب) من عذاب القبر وعذاب الآخرة، وتبنّي منهج التعسير لا التيسير، والتنفير لا التبشير، على خلاف ما أمره به النبي ﷺ.

ولقد حكى لي بعض الآباء أن ابنته تقوم من الليل مفزَّعة مرعوبة، وأن ذلك لازمها منذ مدة، وذلك بعد أن سمعت شريطاً مبالغاً فيه عن عذاب القبر، وما فيه من حيات كالأفيال، وعقارب كالبغال، إلى آخر ما يقال.

ويضاف إلى ذلك في عصرنا: شبكة (الإنترنت) وما تقدمه من معلومات عن الإسلام.

وهذا يوجب علينا أن نحذر المسلم: ألا يأخذ دينه إلا من الثقات المأمونين، الموثوق بعلمهم ودينهم، ولا يؤخذ الدين عن كل من هب ودب.

بل ينبغي للمسلم أن يتحرى ويتوخى الحذر في كل مصدر يتلقى منه الدين، فليس كل ما تخرجه المطابع من الكتب والرسائل موثوقاً به، فكم من كتب مليئة بالخرافات والأباطيل.

ومما ينبغي الحذر منه: الإسرائيليات في التفسير، والأحاديث الموضوعة والواهية في الحديث، والحكايات والمنامات غير المعقولة في الوعظ والترغيب والترهيب.

وأوصي المسلم الذي ينشد الثقافة السليمة: ألا يأخذ حديثاً إلا من عالم يعرف الحديث، فليس كل العلماء والوعاظ يعرفون ذلك.

ويحسن بالمسلم أن يقتني كتباً في الأحاديث المشهورة مثل (المقاصد الحسنة) للسخاوي أو (كشف الخفاء والإلباس فيما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس) للعجلوني، ونحوهما.

**التعلم عن طريق القراءة:**

كما يمكن للمسلم التعلم بالقراءة والمطالعة لكتب ألفها علماء ثقات كذلك، وستظل للكلمة المكتوبة قيمتها وأثرها في التوجيه والتثقيف، وهي الأطول عمراً، والأبقى أثراً. وينبغي للمسلم أن يتخير الكتب التي يقرؤها عامة، والتي يتعلم منها دينه خاصة، فإن المطابع تخرج كل يوم السمين والغث، والجديد والرث، فكم فيها من أصيل نافع وكم فيها من دخيل ضار، وعلى المرء أن يأخذ ما صفا، ويدع ما كدر.

وقد قال أحد الحكماء: أخبرني ما تقرأ؟ أخبرك: من أنت!

ونحذر هنا من سموم الكتب المقروءة، كما حذرنا من سموم الأشرطة المسموعة.

ومن الكتب ما هو معلوم ضرره، بيّن خطره، مثل كتب الملاحدة الجاحدين، والمنصّرين المكشوفين، ومنها ما يدس السم في الحلوى، مثل كثير من كتب العلمانيين والماركسيين وأمثالهم، التي تضلل المسلم العادي عن الحق وتزين له الباطل من حيث لا يشعر.

ومن أشد الكتب خطراً: الكتب الدينية التي لا تستند إلى علم وثيق، والتي حرمت من التمحيص والتحقيق، فهي محشوة بالأباطيل، حافلة

بالمبالغات والأضاليل، وكثيراً ما تروج بضاعتها عند العوام الذين لا يميزون بين الطيب والخبيث.

ومن ذلك: كتب الحَرْفيين والغلاة المتشددين، الذي يكادون يحرمون على الناس كل حلال، ويتبنون التعسير لا اليسير، والتنفير لا التبشير.

والواجب أن تكون هناك رقابة على ما يخرج للعامة من هذا النوع من الكتب والمنشورات، كما تفرض الرقابة على الأغذية الفاسدة والملوثة والمنتهية الصلاحية، وأعتقد أن الخطر على الفكر أشد وأقسى من الخطر على الجسم.

هذا وقراءة الكتب القديمة لا يحسنها كل أحد، فهي تحتاج إلى أدوات ومفاتيح خاصة لفهمها لما فيها من مصطلحات، وقضايا علمية متصلة بعلوم مختلفة، لغوية وشرعية ومنطقية، يستغلق فهمها على كثير من الناس، ولا بد من تلقيها على شيوخها، ليفكوا رموزها، ويردوها إلى أصولها، فمن قرأ وحده، وليس مؤهلاً لها كان يسير في الصحراء بغير دليل، فيوشك أن يهلك ويضيع.

ومن هنا حذر الراسخون من علماء الأمة من أخذ العلم عن «الصُحُفيين» ويعنون بهم الذين يكونون علمهم من (الصحف) أي الكتب وحدها، دون أن يعيشوا في مدارس العلم، ويعايشوا أهله، ويخالطوا شيوخه وتلاميذه، ولهذا تشترط بعض الجامعات في عصرنا نسبة حضور الطالب للمحاضرات لا تقل عن ٧٥٪ ولا تقبل الانتساب إليها دون الحضور.

**وجوب سؤال أهل العلم فيما يشكل على المسلم:**

وفرض على المسلم أن يسأل في كل ما يعترضه من مسائل أو مشكلات يجهل فيها حكم الشرع، ولا يجوز له أن يعمل فيها بهواه، أو حسب رأيه الخاص، أو رأي من ليس من أهل العلم والفتوى. ولا عذر له في ترك السؤال

حياء، أو كبراً، أو كسلاً، أو انشغالاً بأمر الدنيا، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣] ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان: ٥٩].

وقال ﷺ في شأن قوم أهملوا السؤال في واقعة حدثت لهم ترتب عليها قتل امرىء مسلم: «قتلوه قتلهم الله، هلا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال»[1].

ويجب على المسلم أن يسأل من العلماء مَنْ يطمئن إلى رسوخ علمه، وإلى قوة دينه، وإلى اعتداله، وبعده عن الغلو والتسيب، ويجتهد في ذلك ما استطاع، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

* * *

(١) رواه أبو داود عن جابر ـ صحيح الجامع الصغير (٤٣٦) ورواه بلفظ آخر أحمد وأبو داود والحاكم عن جابر ـ المرجع نفسه، (٤٣٦٣).



obeikandl.com

## فرض الكفاية في العلم

وأما فرض الكفاية، فقد يكون في علوم الدين، وفي علم الدنيا.

**التبحر في علوم الدين:**

فأما علوم الدين، فما ليس بفرض عين فيها، فإن تعلمه والتبحر فيه فرض كفاية، بحيث يظل في الأمة من إذا استفتي أفتى بعلم، وإذا استُقضِي قضى بحق، وإذا دعا إلى الله دعا على بصيرة.

يدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢].

فلم يوجب على الجميع النفير لطلب العلم، إنما أوجبه على طائفة في كل فرقة، سواء أكانت هذه الطائفة اثنين أو أكثر أو أقل، ما دامت تكفي لوظيفة التفقيه والإنذار.

ولا يجوز للأمة أن تهمل هذا الأمر، حتى لا يوجد فيها من يفتي الناس ويعلمهم ويذكرهم، كما يدل عليه الحديث المتفق عليه «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً، ينتزعه من صدور الناس، وإنما يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[1].

---

(١) متفق عله عن عبد الله بن عمرو، اللؤلؤ والمرجان: (١٧١٢).

والواجب على الأمة ــ بالتضامن ــ أن تهيء من أبنائها من يقوم بهذه المهمة في الإفتاء والتفقيه والتعليم والدعوة والإرشاد، في صورة التخصص العالي، والعلم الاستقلالي، وأن يكون لديها العدد الكافي بحيث يلبي حاجتها في كل بلد من البلدان، ويجب أن تهيء له من الأسباب، وتنشيء لذلك من المعاهد والكليات: ما يحقق الغرض المنشود.

## التفوق في علوم الدنيا:

وأما علوم الدنيا، فأعدل ما قيل فيه ما قاله الإمام الغزالي، وهو أن فرض الكفاية منها: كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب، فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما، وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد (يعني: دخل عليهم الحرج والمشقة) وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين. (أقول: وقد يحتاج البلد إلى أكثر من واحد، فالمهم أن يوجد العدد الذي يكفي ويسد الحاجة المطلوبة).

قال: «ولا يتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات، كالفلاحة والحياكة والسياسة، بل الحجامة والخياطة، فإنه لو خلا البلد من الحجام (الذي يقوم بجراحة الحجامة، وهو نوع من الجراحة الخفيفة) تسارع الهلاك إليهم، وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإن الذي أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله، وأعد الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله.

«وأما ما يعد فضيلة لا فريضة، فالتعمق في دقائق الحساب، وحقائق

الطب، وغير ذلك مما يستغنى عنه، ولكنه يفيد زيادة قوة القدر المحتاج إليه»[1].

وما قاله الغزالي هنا قويٌّ وموافق لمقاصد الشريعة، فإنها تقصد إلى إنشاء أمة قوية عزيزة مكتفية بذاتها قادرة على التصدي لأعدائها، وهذا يوجب عليها ــ بالتضامن ــ أن تتفوق في كل العلوم الطبيعية والرياضية التي تحتاج إليها الأمم في عصرنا لتنمو وتتقدم، وليس الطب والحساب فقط، فإنما قال هذا باعتبار زمانه. كما تحتاج الأمة في زمننا إلى الصناعات التكنولوجية المتطورة، وليس أصول الصناعات القديمة وحدها، فكل ما يؤدي إليها، ويعين عليها، فهو فرض كفاية على الأمة، حتى تكون سيدة نفسها، ولا تكون عالة على غيرها.

إن الغرب قد ساد العالم في عصرنا ــ ومنه العالم الإسلامي ــ بما ملك من علوم الدنيا، من الفيزياء والفلك والكيمياء والجيولوجيا والبيولوجيا وغيرها، وأنشأ ثورة بل ثورات في العلوم ولا سيما في مجال الألكترونيات والفضائيات والذرة والهندسة الوراثية وغيرها، وفي مجال الأسلحة والأدوية ونحوها.

وقد أدى انفصال الإيمان عن العلم في الغرب: أن أصبح هذا العلم ــ في الجانب العسكري ــ خطراً يهدد العالم بأسلحة الدمار الشامل: النووية والكيماوية والجرثومية.

كما أصبح مجالاً لصناعة أدوية غير مأمونة، بل غير مشروعة، يروجها أناس لا يخشون خالقاً ولا يرحمون مخلوقاً.

وكذلك أمسى الناس يخافون من تطور علم (الجينات) وتقدم الهندسة الوراثية، والقدرة على استنساخ الحيوان: أدخل ذلك عالم الإنسان.

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨) طبعة دار الشعب، بمصر.

ولا علاج لذلك إلا أن يكون العلم في حضانة الإيمان، وأن يدور في فلك القيم والأخلاق، وهذا ما يوفره الإسلام لأهله: حيث يوجب على المسلم أن يكون العلم نافعاً للناس لا ضاراً بهم، وقد استعاذ النبـي الكريم من علم لا ينفع.

**مناقشة للإمام الغزالي على اعتباره التعمق في الدقائق فضيلة لا فريضة:**

هذا ولا نوافق الإمام الغزالي على اعتباره التعمق في دقائق الحساب، وحقائق الطب: مجرد فضيلة لا فريضة، فلعل هذا كان بالنسبة إلى زمنه، أما زمننا فيعتبر التعمق في هذه العلوم وما يشبهها من الرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء وعلوم الأرض (الجيولوجيا) والأحياء (الحيوان والنبات) وعلوم البحار والصحراء، والتشريح ووظائف الأعضاء وغيرها، بحيث يصل إلى دقائقها، ويرتقي إلى حقائقها: فريضة لازمة، والأمم تتسابق في هذا تسابقاً خطيراً، كل منها تحاول أن تحتل مكاناً يجعل لها قدر، وأن تهيء الفرص للنوابغ من أبنائها ليتعمقوا ويتفوقوا.

ولولا التعمق في هذه العلوم ما وصل عصرنا إلى تحطيم الذرة، وغزوة الفضاء، وصناعة (الكمبيوتر) والإنترنت والثورة التكنولوجية، وثورة البيولوجيا (هندسة الوراثة والجينات) وثورة الاتصالات، وثورة المعلومات، وغيرها مما أمسى من خواص عصرنا.

وقد لا يكفي واحد متخصص في جانب لإسقاط الحرج والإثم عن الأمة، إنما هذا بحسب الحاجة، والغالب أن الأمة تحتاج في كل مجال إلى فريق كامل من الخبراء، يسدون الثغرة، ويلبون الحاجة، ويورثون الخبرة لمن بعدهم.

**إتقان العلوم الطبيعية والرياضية:**

ولعل أظهر ما يميز «العلم» بالمفهوم العصري أو الغربـي: أنه لا يقوم

على المنطق الشكلي أو الصوري أو القياسي الذي ينسب إلى أرسطو، وإنما يقوم على منطق الملاحظة والتجربة، ويخضع في نتائجه لما تأتيان به. ولهذا يسمى «العلم التجريبي» ويسمى منهجه «المنهج التجريبي». وهذا يشمل كل العلوم الطبيعية والرياضية التي هي أساس التقدم المادي اليوم، والقرآن والسنة يدعوان الأمة إلى الانتفاع بكل ما سخره الله للإنسان في هذا الكون ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣].

والإسلام يحترم مبدأ التجربة، ويقرها في أمور الدنيا المتغيرة والمتطورة أبداً.

وهنا أيضاً نجد الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ سبق إلى إقرار مبدأ التجربة في الأمور الدنيوية الفنية، مثل أمور الزراعة والصناعة والطب وما شاكلها، فما أثبتت التجربة نفعه في هذا فهو مطلوب شرعاً، وما أثبتت ضرره فهو مرفوض شرعاً.

وأوضح مثال لهذا المبدأ: موقفه عليه الصلاة والسلام من قضية تأبير النخل، حيث رأى أصحابه من الأنصار يفعلون ذلك، ولم يكن له بذلك عهد، حيث نشأ بمكة وهي واد غير ذي زرع، فقال لهم كلمة من باب الظن والتخمين، يشير بها إلى أن هذا العمل لا ضرورة له. وفهم الأنصار منها أنها من أمر الوحي والدين الذي لا يجوز مخالفته. فتركوا التأبير في ذلك الموسم، فخرج الثمر رديئاً. فلما علم ذلك عليه الصلاة والسلام بين لهم أن كلمته لم تكن من باب الوحي الإلهي، بل من باب المشورة الدنيوية. حسب ظنه الناشىء عن خبراته البيئية المحدودة، ثم قال لهم في النهاية: «أنتم أعلم بأمر دنياكم». فهذه الشؤون الدنيوية الفنية المحض، متروكة لعقولهم ومعارفهم، يدبرونها وفقاً لمصلحتهم. وليس من شأن الوحي أن يتدخل فيها، فهم بها أدرى وأعلم.

والقصة في صحيح مسلم، ومسند أحمد وغيرهما، رواها عدد من

الصحابة منهم طلحة بن عبيد الله، ورافع بن خديج، وعائشة، وأنس رضي الله عنهم.

ففي المسند عن طلحة رضي الله عنه قال: مررت مع النبي ﷺ في نخل المدينة، فرأى أقواماً في رؤوس النخل، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ قال: يأخذون من الذكر فيحطون في الأنثى، يلقحون به، فقال: «ما أظن ذلك يغني شيئاً. فبلغهم، فتركوه ونزلوا عنها، فلم تحمل تلك السنة شيئاً. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «إنما هو ظن ظننته، إن كان يغني شيئاً فاصنعوا، فإنما أنا بشر مثلكم، والظن يخطىء ويصيب، ولكن ما قلت لكم: قال الله عز وجل: فلن أكذب على الله»[1].

وفي صحيح مسلم[2] من رواية رافع بن خديج أنه قال لهم: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي، فإنما أنا بشر».

وفيه[3] من رواية عائشة وأنس: أنه ﷺ قال لهم بعد أن خرج التمر شيصاً ــ بسراً رديئاً ــ ما لنخلكم؟! قالوا: قلت كذا وكذا. قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

فالقانون الذي يجب الخضوع له هنا: هو القانون الذي تنتجه الخبرة والممارسة، أو المشاهدة والتجربة. ويكفى العقل الإنساني في هذه الأمور هادياً ودليلاً. أما الوحي فحسبه أن يضع للناس القيم والمبادىء العامة والضوابط. ثم

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسند طلحة حديث رقم (١٣٩٩) قال الشيخ شاكر: إسناده صحيح وقد جاء في المسند مختصراً برقم ١٣٩٥ ورواه مسلم أيضاً برقم (٢٣٦١).

(٢) رواه مسلم من حديث رافع بن خديج برقم ٢٣٦٢.

(٣) رقم (٢٣٦٣).

يدع البشر يتصرفون تبعاً لما يعلمون. وحسبهم هذه الكلمة الجليلة: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

**تعلم اللغات عند الحاجة:**

ومن فروض الكفاية الواجبة على مجموع الأمة: تعلم لغات الآخرين عند الحاجة إليها، وخصوصاً إذا كان عندهم ما ليس عند المسلمين، من علم يؤخذ أو حكمة تقتبس، فلا سبيل إلى الانتفاع بما عند غيرك إذا جهلت لغته. ولم يمنع الإسلام من تعلم لغات الآخرين، بل دعا إليها باعتبارها وسيلة للتفاهم بين البشر، كما أنها وسيلة لنشر دعوته في العالم، فهي هنا فرض كفاية.

وذلك أن رسالته ﷺ، رسالة عالمية، فهو ــ وإن كان عربياً، والكتاب المنزل عليه عربي، وقد أرسله الله بلسان قومه ليبين لهم ــ قد بُعث للناس كافة ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١]. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فلا بد من تراجمة بينه وبين أرباب اللغات الأخرى، حتى يمكنه تبليغ الدعوة إليهم، وتلقي الإجابة منهم. وقد كان عنده ﷺ من أصحابه من يعرف الفارسية والرومية والحبشية، ويكفيه هم الترجمة منها وإليها، ولكن لم يكن عنده من يعرف اللغة السريانية التي يكتب بها يهود، فأمر بذلك كاتب وحيه الأنصاري النابغة: زيد بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ ليتقنها قراءة وكتابة، ويستغني بها عن الوسطاء من اليهود في ذلك، وبخاصة أنهم غير مأمونين.

قال زيد: أمرني رسول الله ﷺ، فتعلمت له كتاب يهود بالسريانية وقال: إني والله ما آمن يهود على كتابي، فما مر لي نصف شهر حتى تعلمته وحذقته، فكنت أكتب له إليهم، وأقرأ له كتبهم[1]. ولعله كان على شيء من المعرفة بها

---

(١) رواه البخاري، وأبو داود، والترمذي ــ انظر ــ جمع الفوائد وأعذب الموارد ج ١ =

من قبل (لمجاورة الأنصار لليهود) حتى أمكنه أن يحذقها في هذه المدة القصيرة.

ومن هنا حرص كثير من المسلمين ــ في عصور ازدهار حضارتهم ــ على معرفة اللغات، فترجموا منها وإليها، وقال في ذلك الشاعر:

بقدر لغات المرء يكثُر نفعه ... فتلك له عند الملمات أعوان

فأقبل على درس اللغات وحفظها ... فكل لسان في الحقيقة إنسان!

**اتقان علوم الإحصاء:**

ومن فروض الكفاية على المسلمين: اتقان (علوم الإحصاء) وما يتعلق بها، لاستخدامها في شؤون الحياة المختلفة.

وإذا كان عصرنا يعتبر استخدام أسلوب الإحصاء من أبرز دلائل الطريقة العلمية في معالجة الأمور، وهو فارق مميز بين العلميين والعشوائيين، أو الغوغائيين من الناس، فإن النبي ﷺ، قد بادر إلى الانتفاع بالإحصاء منذ عهد مبكر من إقامة دولته بالمدينة.

فقد روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فقال: «احصوا لي كم يلفظ الإسلام».

وفي رواية للبخاري أنه قال: «اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس» قال حذيفة: فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل[1]. . الحديث.

فهو إحصاء كتابي يراد تدوينه وتثبيته، وذلك ليعرف عليه الصلاة والسلام مقدار القوة البشرية الضاربة التي يستطيع بها أن يواجه أعداءه المتربصين به،

---

= حديث ٣١٩ ط المدينة المنورة.

(١) انظر: جامع الأصول، (١/ ١٠٠) حديث ٧٥٧٠ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط.

ولهذا كان الإحصاء للرجال فقط، أي القادرين على القتال.

والإحصاء الذي تم في عهد مبكر من حياة الدولة المسلمة، وتم بأمر من الرسول نفسه في سهولة ويسر، يرينا إلى أي حد يرحب الإسلام باستخدام الوسائل العلمية.

وفي مقابل هذا نجد في «العهد، القديم»: أن أحد أنبياء بني إسرائيل أراد أن يعمل لهم إحصاء، فنزلت عقوبة سماوية بهم! كأنما (الإحصاء) يمثل تحدياً للقدر أو للإرادة الإلهية. وهذا ما استنبط منه الفيلسوف الوضعي المعاصر الشهير «برتراند راسل» أن «التوراة» والكتاب المقدس: لا تتيح مناخاً مناسباً لإنشاء عقلية علمية.

**علم التخطيط للمستقبل:**

ويدخل في فروض الكفاية اليوم: ما يسمى (علوم المستقبل) وهي التي تستشرف آفاق المستقبل، في ضوء إمكانات الحاضر الظاهرة والمخبوءة، والمكنونة في طاقات الأمة وعلاقاتها بما حولها ومن حولها، وما تنبىء عنه الدراسات العلمية، التي تعطي ترجيحات لما يتوقع، على سبيل الظن، لا القطع واليقين، وهذا يكفي للتخطيط للمستقبل على هذا الأساس العلمي المقدور عليه.

ولا يجوز للمسلمين أن يعيشوا بمعزل عن هذه العلوم التي تتقدم وتتطور يوماً بعد يوم، وتخدمها عقول كبيرة، ومؤسسات ضخمة في أنحاء العالم.

ولا ينبغي اعتبار ذلك من باب (التنبؤ بالغيب) الذي لا يعلمه إلا الله، لأن هذا في الغيب المطلق، أما الغيوب النسبية التي جعل الله للبشر سبيلاً إلى استشفافها وإدراكها بوسائل معينة، في دائرة السنن الإلهية، فليست في نطاق المحظور شرعاً. إنما هي أشبه بعلم الأرصاد الجوية، الذي يتنبأ بالحرارة

والبرودة، ونزول المطر، ونحو ذلك، بناء على ظواهر جوية مشهودة، لها آثارها المعهودة، وبناء عليها يتوقع ما يحدث من تغيرات المناخ.

وإذا كان الإحصاء من دلائل الطريقة العلمية فالتخطيط كذلك، بل هو أوضح دلالة عليها، والتخطيط إنما يعتمد على الإحصاء، ويراد بالتخطيط وضع خطة لمواجهة احتمالات المستقبل، وتحقيق الأهداف المنشودة.

ومن الناس من يتصورون أو يصورون الدين في موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمي للمستقبل. وهذا من أثر الفكرة القديمة التي جعلت العلم مقابلاً للإيمان، فهما ضدان لا يجتمعان، أو خطان متوازيان لا يلتقيان.

والحقيقة أن فكرة الدين في جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل، ففيه يأخذ المرء المتدين من يومه لغده، وبعبارة أخرى: من حياته لموته، ومن دنياه لآخرته، ولا بد له أن يخطط حياته ويرسم لنفسه منهاجاً وفق عقيدته يوصله إلى الغاية، وهي رضوان الله ومثوبته.

وفي القرآن الكريم قصة جعلها الله عبرة لأولي الألباب، وهي قصة نبي الله يوسف عليه السلام، وفيها يذكر القرآن لنا مشروع تخطيط للاقتصاد الزراعي لمدة خمسة عشر عاماً، لمواجهة أزمة غذائية عامة. عرف يوسف ــ بما ألهمه الله، وعلمه من تأويل الأحاديث ــ أنها ستصيب المنطقة كلها، وقد اقترح يوسف عليه السلام مشروع الخطة، ووكل إليه تنفيذها، وكان فيها الخير والبركة على مصر وما حولها، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٧ ــ ٤٩].

ويظن آخرون أن التخطيط للغد ينافي التوكل على الله، أو الإيمان

بقضائه، وقدره، ولهذا يستبعدون كل الاستبعاد أن يقبل الدين فكرة التخطيط، فضلاً عن أن يوجه إليه، أو يحث عليه.

والحق أن الذي يتعمق في دراسة كتاب الله، وسنة رسوله يتبين له أنهما يرفضان الارتجال والعشوائية، وترك الأمور تجري في أعنتها بغير ضابط، ولا رابط ولا نظام وبين الرسول ﷺ أن التوكل على الله لا يعني إطراح الأسباب أو إغفال السنن، التي أقام الله عليها نظام هذا الوجود، ولا يكاد مسلم يجهل قصة الأعرابي الذي جاء إلى النبي ﷺ، وترك ناقته أمام المسجد قائلاً: يا رسول الله، أأعقل ناقتي وأتوكل أم أطلقها وأتوكل؟ فقال له: «اعقلها وتوكل»[1].

وقال الإمام الطبري يرد على من زعم أن تعاطي الأسباب يؤثر في كمال التوكل: الحق أن من وثق بالله، وأيقن أن قضاءه عليه ماض، لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب، اتباعاً لسنته وسنة رسوله، فقد ظاهر ﷺ بين درعين ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة، وإلى المدينة، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك[2]. اهـ.

ومن قرأ سيرة عليه الصلاة والسلام، وجد أنه كان يعد لكل أمر عدته،

---

(١) رواه الترمذي من حديث أنس، وقال: غريب أي ضعيف، وأنكره يحيى القطان لكن أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث عمرو بن أمية الضمري، وإسناده ــ كما قال الزركشي: ــ صحيح ــ ورواه عنه أيضاً ابن خزيمة في صحيحه بلفظ: «قيدها وتوكل» وإسناده ــ كما قال الزين العراقي: ــ جيد ــ انظر: فيض القدير جـ ص ٧ حديث ١١٩١.

(٢) نقله الشوكاني في نيل الأوطار (٩/ ٩٢) ط دار الجيل بيروت.

ويهيىء له أسبابه وأُهبته، آخذاً حذره، مقدراً جميع الاحتمالات، واضعاً ما أمكنه من الاحتياطات، مع أنه كان أقوى المتوكلين على الله تعالى.

فهو حين أمر أصحابه ــ بعد أن اشتد إيذاء قريش لهم ــ بالهجرة إلى الحبشة، لم يكن هذا الأمر اعتباطاً، أو رمية من غير رام، بل كان نتيجة معرفة بالظروف الجغرافية، والدينية والسياسية للحبشة في ذلك الوقت.

وهذا يدلنا على أن الرسول وأصحابه لم يكونوا في عزلة عن العالم من حولهم، رغم صعوبة المواصلات بين الأقطار بعضها وبعض.

ويدل على ذلك أيضاً: موقفهم من حرب الفرس والروم، وما كان من جدل بين المسلمين والمشركين في هذا، مما نزلت فيه أوائل سورة الروم ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝١ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٢ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الروم: ٢ ــ ٨].

وهكذا... فقد كانوا ــ وهم في فجر الدعوة، ورغم الضعف والاضطهاد ــ على صلة بالصراع العالمي بين الدولتين العظميين في ذلك العصر، أو المعسكرين الكبيرين: الشرقي والغربي، ولمن سيكون المستقبل منهما؟ وهل سيبقى الوضع على ما هو عليه أو سيتغير؟ ولصالح أيِّ الفريقين؟

وأوضح من ذلك موقفه ﷺ في هجرته إلى المدينة، ففيها يتجلى التخطيط العلمي، والتوكل الإيماني جنباً إلى جنب.

فلقد أعد عليه الصلاة والسلام من جانبه كل ما يستطيع البشر إعداده من الوسائل والاحتياطات والمعينات.

ولقد اطمأن إلى المهجر الذي سينتقل إليه، بعد أن بايع المؤمنين من الأوس والخزرج بيعة العقبة الأولى والثانية، واشترط لنفسه أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وذراريهم.

واطمأن إلى الرفيق الذي سيصحبه في رحلته الجاهدة بما فيها من أخطار، وما تحمله من مفاجآت، ولم يكن هناك أفضل من أبـي بكر رفيقاً.

واطمأن إلى الفدائي الذي سيبيتُ مكانه، معرضاً نفسه لاحتمالات الخطر، وغدارات المتربصين، ولم يكن ثم أفضل من علي ابن عمه أبـي طالب فارس الإسلام لهذه المهمة.

ورتب الدليل الخريت الذي يدله على الطريق، وما فيه من منعطفات ومخابىء يمكن أن تضلل عنه أعين الطالبين، فكان مشركاً أميناً، هو عبد الله بن أريقط. وهو ما أخذ منها الفقهاء جواز الاستعانة بالخبرة الفنية غير الإسلامية، مع الاطمئنان والأمان.

وهيأ الرواحل التي سيمتطيها هو وصاحبه ودليله في سفرهم الطويل، واتفقوا على المكان الموعود الذي يستقلون به الركائب.

وتخير المخبأ الذي يختفي فيه أياماً معدودة، حتى تخف حدة الطلب، ويتملك القوم اليأس، واختاره في غير طريق المدينة، زيادة في التعمية على القوم، فكان غار «ثور».

وأعد فريق الخدمة الذي يأتي بالزاد، والأنباء خلال أيام الاختفاء، فكانت أسماء وعبد الله بن أبـي بكر، ومن بعدهما عامر بن فهيرة مولى أبـي بكر يأتي بغنمه فيحلبون منها ويعفِّي على آثار أسماء وعبد الله.

خطة محكمة الحلقات، متقنة التدبير، ولم تُترك فيها فجوة دون أن تُملأ، ولا ثغرة دون أن تُسد، ووضع فيها كل جندي في دوره المناسب لظروفه وقدراته، فدور أبي بكر، غير دور علي، غير دور أسماء، وكل في موقعه الصحيح.

ومع هذا الإحكام الدقيق، كادت الخطة تخفق، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الغار، ويقفوا على بابه، وكان يكفي لكشف الأمر وإفساد الخطة، أن ينظر أحد القوم تحت قدميه، ليرى الرسول وصاحبه في الغار، وهذا ما خشيه أبو بكر، وصرح به للرسول ﷺ حين قال: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فقال له كلمته المؤمنة الواثقة: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»؟ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وهنا تجلى دور «التوكل» الحق، فبعد أن يبذل الإنسان ما في وسعه، ويتخذ من الأسباب والخطط ما يقدر عليه، يدع ما لا يقدر عليه من مفاجآت القدر، لله وحده. وهناك تقع «إن الله معنا» موقعها وتؤتي أكلها.

## اقتباس كل علم نافع من أهله:

ومن فروض الكفاية على المسلمين: اقتباس كل علم ينفع الإسلام وأهله، ولو كان من عند غير المسلمين، كما رأينا الرسول الكريم كيف استفاد من أسرى المشركين في بدر في تعليم أولاد المسلمين الكتابة، وقد تعلم منهم الشاب الأنصاري النابه: زيد بن ثابت، وأصبح من كتّاب الوحي بعد ذلك.

وقد روى الترمذي وابن ماجه بإسناد ضعيف ــ حديث:

«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها، فهو أحق بها»[1].

---

(١) الحديث ضعيف الإسناد، ولكن معناه صحيح.

والحديث ــ مع ضعف إسناده ــ صحيح المعنى، ولهذا عمل بمقتضاه المسلمون، وانتفعوا بما لدى الأمم الأخرى من علم وحكمة.

وقال علي رضي الله عنه: العلم ضالة المؤمن، فخذوه ولو من أيدي المشركين[1].

وينطبق هذا أكثر ما ينطبق على نتائج العلوم المادية المحضة، التي لا تصطبغ بعقائد أصحابها ولا بأفكارهم، لأنها قوانين كونية عامة، يدين بها المؤمن والكافر، ويخضع لسنتها البر والفاجر.

ومن هنا لم يجد المسلمون حرجاً في اقتباس العلوم الكونية من الطب والكيمياء، والفلك، والبصريات، والرياضيات، وغيرها من أمم الحضارات القديمة، مثل اليونان، والفرس، والروم والهنود ولا سيما اليونان.

وهذا بخلاف الدراسات الأخرى التي تتصل بالدين والقيم والمفاهيم، وتؤثر في وجهة نظر دارسها إلى الله والطبيعة والإنسان والتاريخ والمجتمع.

ومن هنا أنكر النبي ﷺ على عمر حين رآه يقرأ شيئاً من صحائف أهل الكتاب من اليهود، لأن الله تعالى قد أغنى بالقرآن المحفوظ عن كتب أصابها التحريف والتبديل، واختلطت فيها كلمات الله بأوهام البشر، وأهواء الخلق، ففقدت الثقة بعصمتها، والدين لا يجوز أن يؤخذ إلا من مصدر إلهي معصوم، ثابت النسبة إلى الله تعالى.

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ، بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فرآه النبي ﷺ فغضب

---

(١) «جامع بيان العلم» (١/ ١٢١).

فقال: «أمُتَهَوِّكون فيها يا ابن الخطاب؟[1] والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به. والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»[2].

وإنما غضب النبي ﷺ، وتغير وجهه واشتد في إنكاره، لأن الأمر هنا أمر دين لا يؤخذ إلا من الصادق المصدوق. وخصوصاً في فترة النشأة والتكوين، فيجب التشديد فيها، حتى لا يختلط الدين الحق بغيره من الأباطيل.

أما علوم الحياة وفنونها، وما يهتدي إليه الناس بعقولهم وتجاربهم فهو ملك عامة البشر، نأخذه من أي وعاء خرج، ونلتمسه من الشرق أو الغرب، ونقتبسه من المسلم والمشرك، كما رأيناه ﷺ، يستفيد من أسرى المشركين في محو الأمية، ويأخذ بفكرة حفر الخندق حول المدينة، وهي من أساليب الفرس، ويستخدم المنجنيق في حصار الطائف، ويخطب على المنبر، وهو صنعة نجار رومي.

ونرى خلفاءه الراشدين يسنون للأمة أموراً لم يكن للعرب بها عهد، إنما اقتبسوها من غيرهم من الأمم، إذ رأوا فيها صلاحاً ونفعاً، فها نحن نرى عمر يستجيب لمقترحات بعض أصحابه فيأخذ بفكرة التاريخ، وفكرة تدوين

---

(١) متهوكون: أي متحيرون، يعني هل أنتم متحيرون، أو مترددون في عقيدتكم حتى تأخذوا العلم من غير كتابكم ونبيكم؟

(٢) رواه أحمد كما في «ترتيب المسند» للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا ــ كتاب العلم ــ رقم (٦٣) ونقل في تخريجه من صاحب «التنقيح» أن رجاله رجال الحسن، وهو عند أحمد. وابن ماجه عن ابن عباس، وإسناده حسن، وعن ابن حبان عن جابر أيضاً بإسناد صحيح. وفي الباب عن عبد الله بن ثابت الأنصاري عند أحمد وابن سعد والحاكم في «الكنى» والطبراني في الكبير، والبيهقي في شعب الإيمان، وعن جابر عند الدارمي.
الفتح الرباني (١/ ١٧٥).

الدواوين، وغيرها، مما اعتبره المؤرخون من (أوّليات عمر).

بل ذهب بعض الباحثين إلى أن التدوين قد بدأ منذ عهد النبـي ﷺ، أخذاً مما ذكرناه من قبل من الأمر بالإحصاء الكتابـي للمسلمين بعد الهجرة[1].

ومن هنا لا نرى بأساً ولا حرجاً في اقتباس أمتنا للعلوم التجريبية، أعني العلوم الطبيعية والرياضية التي تفوق فيها الغرب، وإن أخذ مبدأها منا، واقتبسها من حضارتنا، فهي بضاعتنا ترد إلينا، ولكنه في الواقع طورها وأضاف إليها، وارتقى بها ارتقاء هائلاً، استطاع بها أن يصل إلى القمر، ويحاول غزو الكواكب الأبعد.

(أ) فعلينا أن نستفيد من هذه العلوم الكونية إلى حد الاتقان والتفوق، حتى نملك أسرارها، ولا نصبح عالةً على غيرنا.

(ب) ويجب علينا أن نربطها بالإيمان والتوحيد، من حيث متعلقاتها وغاياتها وفلسفتها، باعتبار تجسدّ سنن الله في الكون، وآياته في الآفاق وفي الأنفس، ونعمه تعالى في تسخير ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه للإنسان خليفته في هذا العالم. وهذا ما ينبغي أن يكون عليه تعليم هذه العلوم للناس.

(ج) وعلينا أن نربط هذه العلوم من حيث نتائجها واستخداماتها العملية بالقيم والأخلاق، فلا تستخدم فيما يضر الإنسان مادياً ولا معنوياً، ولا فيما يغوي الظالم على ظلمه، والمبطل على الاستمرار في باطله، وتوسيع دائرته ونشره، ولا فيما يلوث الحياة والبيئة، ويخل بالتوازن الكوني.

إن العلم في رسالتنا يبني ولا يهدم، ويحيـي ولا يميت، لأنه ناشيء في

---

(١) انظر: «التراتيب الإدارية» أو نظام الحكومة النبوية للكتاني (١/ ٣٢٧، ٣٢٨).

حضانة الإيمان ومن أوتي العلم قال ما قاله سليمان حين أتى بعرش ملكة سبأ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

* * *

obeikandl.com

## الإسلام والعلوم الإنسانية

ولا بد لنا أن نجيب عن سؤال كبير هنا، يسأله كثيرون من المسلمين، وهو: ما موقف الإسلام من «العلوم الإنسانية» وذلك لما لهذه العلوم من بعيد الأثر، وعظيم الخطر، على اتجاهات الثقافة والفكر في مجتمعاتنا الإسلامية.

فهذه العلوم التي تتصل بالإنسان ــ من علوم النفس، والاجتماع، والتربية، والأخلاق، والفلسفة، واللسانيات، والاقتصاد، والقانون، والتاريخ وغيرها ــ هي التي تصنع أذواق الناس وميولهم، واتجاهاتهم العقلية والنفسية والسلوكية، وتؤثر في تكوين الشخصية الإنسانية للفرد، والشخصية الحضارية للأمة.

ولهذا تختلف هذه العلوم من أمة إلى أمة، ومن مجتمع إلى آخر، تبعاً لفلسفته في الحياة، ونظرته إلى الدين والدنيا، وللفرد والمجتمع.

فإذا لم تكن هذه العلوم معبرة عن عقائد الأمة وقيمها وأهدافها الكبرى، وإنما تعبر عن مُثل قوم آخرين، ومبادئهم وأفكارهم وفلسفتهم الدينية والأخلاقية والاجتماعية والحضارية، فإن إثمها يكون أكبر من نفعها، وتكون معول هدم لمعنوية الأمة ووحدتها، بدلاً من أن تكون أداة بناء وتشييد.

إن نقل العلوم الإنسانية عن الآخرين نقلاً حرفياً بما وراءها من أصول نظرية واتجاهات فلسفية: أشبه بـ(نقل الدم) من إنسان لآخر، فإذا كان من فصيلة غير فصيلته ــ ولو كان نقياً من أي ميكروب أو تلوث ــ فقد يكون سبباً في هلاك المنقول إليه، فكيف إذا لم يسلم من التلوث؟

ليس معنى هذا إغلاق الأبواب والنوافذ أمام هذه العلوم، ورفض كل مقرراتها ونتائجها.

فليس هذا شأن المسلم الذي يلتمس الحكمة من أي وعاء خرجت.

وقد رأينا النبي ﷺ يقول، فيما رواه البخاري: «أصدق كلمة قالها شاعر: كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. وهو مطلع قصيدة للبيد بن ربيعة قالها في جاهليته، ولم ير النبي ﷺ الكريم حرجاً في الاستدلال بها والاستفادة منها.

وقد رأينا كثيراً من الصحابة ــ مثل ابن عباس ــ يستشهدون بأشعار مما قاله شعراء الجاهلية ويفسرون بها القرآن، كما رأيناهم يقتبسون من بعض نظم الفرس والروم ما لا يتعارض مع شريعتهم.

فلا غرابة أن نأخذ من العلوم الإنسانية اليوم ما ثبتت علميته، وموضوعيته، وقامت الأدلة المنطقية، أو التجريبية، على صحته.

والذي يهمنا تأكيده هنا: أن نقف من هذه العلوم موقف الأحرار، لا موقف العبيد، نأخذ منها وندع، وفقاً لمسلماتنا العقائدية والفكرية التي تميز شخصيتنا، باعتبارنا (أمة وسطاً) بوأنا الله مكانة الشهادة على الناس، وكلفنا رسالة الحق والخير، وهداية البشرية للتي هي أقوم.

لا بد من معرفة ما وراء هذه العلوم وما تهدف إليه، وما جاءت به، وماذا فيها من العلم، وماذا فيها من الخلط، وماذا فيها من الهوى، فنأخذ ما نأخذ عن بينة، ونترك ما نترك عن بينة.

**ملاحظات على العلوم الإنسانية:**

ومن الملاحظ على هذه العلوم الإنسانية جملة أمور:

**١ ــ الظنيـــة:**

**أولاً**: أنها علوم ظنية تخمينية، لا تقوم على مقدمات يقينية، ولذا لا تعطى نتائج يقينية.

وهذا باعتراف أقطاب هذه العلوم أنفسهم، حتى قال العالم النفسي الشهير وليم جيمس عن علم النفس: أنه ليس علماً، بل هو أمل علم.

وهذا ما اقتبسه اقتصادي أمريكي معاصر، هو جون. س. جانبس ــ وقال الكلمة نفسها عن علم الاقتصاد[١].

وقال الدكتور آلكسيس كاريل: يجب أن يفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية ما زالت غير معروفة. فإن علوم الاجتماع والاقتصاديات علوم تخمينية افتراضية[٢].

وسبب ذلك أن موضوع العلوم الإنسانية هو الإنسان، وهو مخلوق سريع التغير، ليس كالمعادن أو الفلزّات وغيرها من مظاهر المادة التي يمكن إجراء التجارب عليها، واستخلاص النتائج منها بثقة كبيرة.

كما أن المادة لا إرادة لها ولا عقل، ولهذا تحكمها القوانين الطبيعية لا وتضبطها، بخلاف الإنسان الذي يظهر ما شاء ويبطن.

والمادة هي المادة سواء كانت في أدغال افريقيا أم في سهول أوروبا، تخضع لقوانين الحرارة والبرودة والتجمد والتمدد... الخ. أما الإنسان فهو ابن بيئته ووقته، يتأثر بالمكان، كما يتأثر بالزمان.

والإنسان الفرد يتغير تفكيره ومشاعره وسلوكه من مرحلة في العمر

---

(١) في كتابه: المدخل إلى علم الاقتصاد ص (١٨٠).

(٢) الإنسان ذلك المجهول ص (٤٠).

مرحلة، ومن حالة إلى حالة، فهو في الشباب غيره في الهرم، وهو في الشدة غيره في الرخاء، وهو في المرض غيره في الصحة، وهو في الفقر غيره في الغنى، حتى قال المتنبي:

يقضَى على المرء في أيام محنته  حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن!

ثم إن كل إنسان من البشر يمثل في نفسه (مملكة مستقلة) لها طابعها المميز عن غيره، فكما أن صوته لا يشتبه بأصوات الملايين غيره، وصورته تتميز عنهم، و (بصمته) تختلف عنهم. فكذلك شخصيته المعنوية.

لهذا كان إجراء التجارب على نماذج (عينات) من البشر، ثم قياس الآخرين عليها، على اعتبار أنهم مماثلون لهم، لا يخلو من مجازفة، فالفروق ثابتة بيقين.

يقول البروفسور رينيه دوبو في كتابه «إنسانية الإنسان»: «كل إنسان مخلوق فريد، ليس له نظير سابق، ولن يكون له نظير لاحق»[1].

وهذه الأسباب كلها وغيرها تبقى هذه (العلوم) في دائرة (الظن والتخمين)، فلا ينبغي أن نتجاوز بها هذه الدائرة، وخصوصاً في أصولها النظرية واتجاهاتها الفكرية. ولا غرو أن تختلف اختلافاً شديداً فيما بينها، في مناهجها وفي نتائجها.

ومن ثم تكون تسميتها (علوماً) من باب المجاز، لأن الأصل في العلم أنه ما بني على اليقين، وما يفيد اليقين. ولهذا قال القرآن عن اعتقادات المشركين

---

(١) بهذه الكلمة ابتدأ المؤلف ــ وهو من الحاصلين على جائزة نوبل في العلوم ــ تمهيده لكتابه الذي يعد نقداً علمياً للحضارة الغربية المعاصرة ص (٢٧) ترجمة د. نبيل صبحي الطويل نشر مؤسسة الرسالة، بيروت.

من العرب ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾[النجم: ٢٨].

وإذا كان هذا هو شأن مقررات هذه العلوم، فلا يجوز لمسلم أن يعارض بها النصوص الثابتة المحكمة من القرآن والسنة، كما يصنع ذلك بعض المتعجلين أو المغرورين بنتائج هذه العلوم، ممن لم يتعمقوا في بحار الثقافة الإسلامية الأصيلة.

**٢ ــ الذاتيـــة:**

**ثانياً**: أن هذه العلوم غير محايدة، إن الذاتية تلعب فيها دوراً كبيراً، ووجهة النظر الدينية أو الأيديولوجية أو القومية لدى الباحث توجه تفكيره وبحثه، شاء أم أبى، شعر أو لم يشعر، فليس هناك إنسان قادر على أن يتحرر من ذاتيته تحرراً كاملاً، ويتخلص من ضغط المؤثرات الثقافية والبيئية على عقله.

ولهذا رأينا للماركسيين (مدارس) في علم النفس، وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد، وتفسير التاريخ، وغيرها، تتجه إلى غير ما تتجه إليه المدارس الغربية التقليدية (الكلاسيكية)،.

وحتى المدارس الغربية كثيراً ما نجدها تختلف فيما بينها، فالمدرسة الاجتماعية الفرنسية، غير المدرسة الاجتماعية الأمريكية، ولكل منهما خصائصه وشخصيته.

وفضلاً عن ذلك توجد أهواء متعمدة توجه بعض الباحثين في العلوم الإنسانية والاجتماعية، لتحقيق أغراض خاصة لمصلحة شعب، أو طائفة، أو طبقة، أو حزب، أو غير ذلك.

وأشد ما يشين العلم ــ بعد اتباع الظن ــ اتباع الهوى، فإنه يعمي عن

الحقيقة ويصمّ. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

ومن هنا حذر الله نبيه داود بقوله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وقد ذم القرآن المشركين فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وأخطر الأهواء هي التي تلبس لبوس العلم، وهي ليست منه في شيء، أو تدس الأباطيل الزائفة بين ثنايا الحقائق الثابتة، كما يدس السم في العسل.

ولهذا وجدنا اليهود ــ تبعاً لطموحاتهم في السيطرة على العالم ــ يحاولون النفوذ من خلال هذه العلوم لبث أفكارهم، وإشاعة آرائهم، ــ أو أهوائهم ــ المنبثقة عن اعتقاداتهم العنصرية والدينية.

وقد أشار الكاتب الكبير الأستاذ عباس العقاد في كتابه عن (الصهيونية العالمية) إلى ثلاثة من كبار اليهود كان لهم آثارهم الخطيرة في مجال الدراسات الإنسانية، وهم فرويد في مجال علم النفس، وماركس في مجال الاقتصاد، ودور كايم في علم الاجتماع.

وقد سمعت من شيخنا الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق: أن نحو ٨٠٪ من كراسي علم النفس وعلم الاجتماع في أمريكا، كان يحتلها اليهود في وقت من الأوقات.

**٣ ــ الروح الغربية:**

**ثالثاً**: إن هذه العلوم في صورتها المعاصرة علوم غربية. وما يدرس منها في جامعاتنا ليس أكثر من ترجمة، إلا ما ندر، فالزعم بأنها علوم عالمية الوجهة، إنسانية الطابع، زعم مخالف للواقع. بل هي علوم عليها خاتم الفكر الغربي وتوقيعه. نظرتها إلى العالم من خلال الغرب، وإلى التاريخ العالمي من

خلال تاريخ الغرب، وإلى الدين من خلال الممارسة الغربية، وتقسيم التاريخ إلى قديم ووسيط وحديث، مبني على أحداث وقعت للغرب.

والعصور الوسطى عندهم عصور ظلام، لأنها هكذا كانت في الغرب، بغض النظر عن أنها كانت العصور الذهبية للحضارة الإسلامية الشامخة.

فهذه العلوم للأسف بالنسبة لنا نحن العرب، والمسلمين ليست محايدة، بل هي معارضة لخطنا الفكري، واتجاهنا الحضاري، بل أكثر من ذلك أنها تحمل روح العداء لنا.

وسبب ذلك أنها تحمل رواسب موروثة من روح الحروب الصليبية، كما أشار إلى ذلك الباحث الأوروبي المهتدي إلى الإسلام ليوبولد فايس (محمد أسد) كما وضّح ذلك في كتابه القيم: «الإسلام على مفترق الطرق».

**من عيوب النظرة الغربية للإنسان:**

ولما كانت العلوم الإنسانية في صورتها المعاصرة ابنة للغرب أو ربيبته في حجره، رأيناها تحمل في طيها فلسفة الغرب ونظرته للإنسان وعلاقته بالله وبالكون وبالحياة. وهذه هي آفة هذه العلوم.

**( أ ) إغفال الروح في كيان الإنسان:**

وعيب هذه النظرة الغربية للإنسان: أنها لا تنظر إليه من خلال طبيعته المزدوجة: مادة وروح، إنما تنظر إليه من خلال كيانه المادي، وجسمه المنظور، أما تلك النفخة الإلهية التي نسميها (الروح) فلا مكان لها في النظرة الغربية.

حتى الذين نقدوا الحضارة الغربية وموقفها من الإنسان ــ مثل. د. الكسيس كاريل ــ لم يستطيعوا أن يخترقوا حجاب المادة، ليصلوا إلى عالم الروح. وكل تركيزهم على الجسم، وكل نشاط للإنسان في الحياة ــ حتى

النشاط الروحي والديني ــ مرده إلى الجسم نفسه فبحثهم يتركز حول الإنسان، باعتباره آلة أو ماكينة معقدة، ولكنها ليست من حديد، بل من لحم ودم.

ذلك أن كاريل وأمثاله من نقاد هذه الحضارة هم ربائبها وهم أسارى في معسكرها!، فلا يسهل عليهم الفكاك من أَسرها، أو الإفلات من سجنها.

أما الإنسان في نظر الإسلام، فهو كائن ذو طبيعة مزدوجة، فيه قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله، كما بين ذلك القرآن في خلق آدم أول البشر ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١ ــ ٧٢].

فإذا كان في خلق الإنسان نوازع تشده إلى أسفل، إلى الطين، فإن بجوانحه أشواقاً تجذبه إلى أعلى، إلى الأفق الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾.

وإذا كان الجانب الطيني في الإنسان يحتاج إلى غذاء من جهة الأرض التي خلق منها، فإن الجانب الروحي فيه يحتاج إلى غذاء من جهة السماء التي جاءت منها نفخة الروح. وبهذا ثبتت حاجة إلى الإنسان وحي الله. ليهديه صراطه المستقيم، وإلى عبادة الله ليشبع نهمه، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان!.

هذه النظرة الغربية للإنسان التي لا تعترف إلا بجانبه المادي المنظور وبهيكله المحسوس، المكون من الأجهزة والأعضاء والخلايا، من العظم واللحم والدم والأعصاب ــ ترتب عليها محظور آخر، في اعتبار الإنسان لنفسه، وقيمته في الكون.

فالإنسان ــ ولا شك ــ من حيث حجمه شيء ضئيل ضئيل، فما قيمة جرم الإنسان بالنسبة إلى جرم الأرض؟ وما قيمة جرم الأرض بالنسبة إلى جرم مجرتنا التي نعيش فيها؟ وما نسبة هذه المجرة إلى المجرات الأخرى؟.

ولكن قيمة الإنسان ليست بهذا الجرم المادي، والغلاف الطيني، قيمة الإنسان في الجوهرة الربانية التي أودعها الله في الطين والحمأ المسنون، وهي التي استحق بها الإنسان التكريم والسجود من الملائكة ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [صّ: ٧٢].

وقد كرم الله هذا الإنسان، واستخلفه في الأرض، وحمله مسؤولية كبرى ناءت بحملها السموات والأرض والجبال. يقول القرآن:

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقد علمنا القرآن الكريم أن هذا الكون الكبير مسخر للإنسان، وليس الإنسان مسخراً للكون، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ــ ٣٤].

وهذا ما جعل للإنسان قيمة كبرى في الكون وإن صغر حجمه، وفي هذا يروون عن علي ــ رضي الله عنه ــ قوله يخاطب الإنسان:

دواؤك فيك وما تشعر! وداؤك منك وما تبصر!
وتزعم أنك جِرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر!

ولا ريب أن الإنسان كذلك من حيث عمره ضئيل ضئيل، فما قيمة سبعين أو مائة سنة بالنسبة إلى عمر الأرض، أو عمر الشمس، أو عمر الكون، كما قدره الجيولوجيون وغيرهم بملايين السنين أو بلايينها؟!

ولكن ميزة الإنسان: أنه لم يخلق لهذه الحياة العاجلة القصيرة. إنه خلق للخلود، وإنما يعد في هذه الدار للبقاء في دار القرار. وفي هذا يقول عمر بن عبد العزيز: إنكم خلقتم للأبد، وإنما تنقلون ــ أي بعد الموت ــ من دار إلى دار. ويقول الشاعر المؤمن:

لا تظنوا الموت موتاً، إنه ليس إلا نقلة من ههنا!

ويقول الآخر:

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي!

فالموت ليس فناء محضاً، ولا عدماً صرفاً، كما يتوهم، ولو كان الموت عدماً مطلقاً لم يخلق، مع أن القرآن يقول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فلا مجال للعبثية إذن في نظر الإنسان المسلم، وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ــ ١١٦].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٧ ــ ٢٨].

إن كدح الإنسان في هذه الدار الفانية ليس ضائعاً، إنه غرس يجتني ثمره

يوم يلاقي ربه، وهو ملاقيه لا محالة، فيجزيه الجزاء الأوفى، وهو ما قررته كتب السماء، وأكده القرآن: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٣٨ ــ ٤٢].

وما أجمل هذا النداء الرباني المباشر للإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦].

**(ب) إغفال الدار الآخرة:**

وعيب النظرة الغربية كذلك أنها تنظر إلى الإنسان من زاوية هذه الحياة الدنيا وحدها، وما لها في الآخرة من خلاق، وكثيراً ما تنتهي هذه النظرة بالشعور بتفاهة الحياة، وسخافة الوجود، وما معنى أن يعيش الإنسان أياماً تقصر أو تطول، ثم يحكم عليه بالإعدام قسراً، وتطوى صفحته، وهو ما عبر عنه الدهريون قديماً حينما لخصوا قصة الحياة بقولهم: إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع! ولا شيء وراء ذلك! أو كما قالوا: «نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر»!.

وهو ما عبر عنه الملاحدة من الوجوديين وغيرهم من المحدثين القائلين بعبثية الحياة، وفقدان أي معنى للوجود. ولهذا ما وراءه من الضياع والقلق والاكتئاب وما سماه سارتر (الغثيان).

**(ج) إغفال جانب العبودية لله:**

وعيب النظرة الغربية كذلك للإنسان: أنها تعامله على أنه سيد مطلق في الكون، فهي تضفي عليه بعض خصائص الألوهية وصفاتها، فهو يتصرف في الكون وكأنه فيه وحده، فلا يسأل عما يفعل، ولا يحاسب على ما يقول. وأغفلت الجانب الآخر من الصورة وهو: أن هذا الإنسان مخلوق لخالق عظيم،

ومربوب لرب كبير، خلقه ولم يكن شيئاً مذكوراً، ومنحه العقل، وأعطاه الإرادة، وعلمه البيان، وهداه السبيل، وبعث له الرسل، وأنزل عليه الكتب، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً.

إن الإسلام ينظر إلى الإسلام على أنه سيد في الكون عبد لله وحده، ولا تنافي بين سيادة الإنسان في الكون وعبوديته لله، لأن عبوديته لله وحده تعني تحريره من العبودية لكل ما سواه، فلا عبودية لحجر، ولا بشر ولا فلك، ولا حيوان ولا وهم، ولا شيء في الأرض أو في السماء. وفي هذا كانت دعوة الإسلام إلى الناس كافة: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

هذا التوحيد هو جوهر الإسلام، وهو الأساس الحقيقي لتحرير الإنسان وسيادته في الكون في ظل عبوديته لله.

وبهذا تكتمل الصورة، وتتجلى الحقيقة: حقيقة هذا المخلوق الذي جاء إلى الحياة بغير اختياره، ويخرج منها بغير اختياره، وهو ــ بين الحياة والموت ــ تحكمه قوانين كونية لا إرادة له فيها، ولا قدرة له عليها، فلا ينبغي له حينئذ أن يتعالى أو يطغى.

وهذ ما أراد القرآن أن يثبته من أول آيات نزلت من الوحي في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ــ ٥].

فهذه الآيات الأولى تنوه بالإنسان وصلته بربه الخالق المعلم ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾، ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤﴾.

ومن أبرز النداءات الإلهية للإنسان في القرآن قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ

مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾ [الانفطار: ٦ ــ ٨].

### ( د ) الزهو بمنجزات الحضارة المادية:

وعيب النظرة الغربية كذلك: أنها مزهوة بما أنجز الإنسان الغربي ــ بواسطة العلم ــ في دنيا الحضارة المادية، ألم يقهر الطبيعة! ويحطم الذرة، ويغز الفضاء؟ ألم يقرب المسافات، ويختصر الزمن، ويسهل الحياة للناس عن طريق الآلة التي تتطور يوماً بعد يوم؟ ألم ينجز (الثورة الألكترونية) و (الثورة البيولوجية) و (الثورة التكنولوجية) و (ثورة الاتصالات) و (ثورة المعلومات)... الخ؟

بلى، قد فعل الغرب ذلك كله. ولكن هل حقق ذلك السعادة للإنسان؟ هل سلم الإنسان من القلق والضياع؟ هل عاش الإنسان يحدوه الأمل والثقة والرجاء؟ هل هيأ ذلك للإنسان حياة يحقق فيها ذاته، وينمي خصائص إنسانيته، ويشعر معها أن لوجوده معنى وهدفاً؟ هل شعر الإنسان بالأمن الروحي وسكينة النفس؟

الواقع أن الإنسان الغربي يطير بجناح واحد، وهو جناح (العلم) المادي التطبيقي، وأنه عطل الجناح الآخر: جناح الإيمان واليقين، وحقاً إن العلم الغربي قد هيأ للإنسان سبل الراحة والرفاهية، ولكنه لم يهيىء له السكينة التي هي روح الحياة، وسر السعادة. لقد أعطاه وسائل وأدوات، ولكنه لم يعطه مقاصد وغايات.

لقد غذى العلم جسم الإنسان، ولكنه لم يغذ روحه، أشبع معدته بألوان الطعام والشراب، ولكنه عجز أن يشبع قلبه وجوَّانيته.

استطاع أن يصعد بالإنسان إلى سطح القمر، ولكنه أفلس أن يحل مشكلاته على ظهر الأرض!.

ولقد قال أحد الأمريكيين المعاصرين: إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ أننا الجيل الذي رفع إنساناً إلى القمر، بينما هو غائص ــ إلى ركبته ــ في الأوحال والقاذورات!.

ولكن الإنسان في نظر الإسلام مخلوق لأهداف أعظم من مجرد الإنجازات المادية.

إنها ــ كما أوجزها الإمام الراغب الأصفهاني ــ ثلاثة:

العبادة لله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

الخلافة لله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

العمارة للأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

**المدرسة الإسلامية للعلوم الإنسانية:**

وإذا كانت العلوم الإنسانية في وضعها الغربي المعاصر: حافلة بالثغرات التي ذركناها، فلا يجوز ــ باعتبارنا ــ مسلمين لنا هويتنا الدينية والأخلاقية والثقافية والحضارية ــ أن نأخذها ــ كما هي، على أنها قواعد مسلمة، وحقائق ثابتة، بل ندرسها بعقول متفتحة، وبصائر نيرة، غير متعصبين لها ولا عليها، مستفيدين مما فيها من صواب، وجوانب إيجابية، متجنبين ما فيها من خطل وزلل، شأنها شأن كل جهد بشري، وكل فكر بشري، فهو يحتمل الصواب والخطأ، والاستقامة والانحراف.

فلا ينبغي لنا الإعراض عنها بالكلية، لأنها من إنتاج غير المسلمين، فالعزلة غير مقبولة، كما لا يجوز لنا أن نأخذها بحذافيرها، على أنها حقائق

علمية يقينية، فالتقليد الأعمى غير مشروع.

بل يجب أن ندرسها ونهضمها، ثم نعمل فيها ــ على ضوء عقائدنا وقيمنا ومفاهيمنا ــ يد التعديل والتنقيح، والحذف والإضافة.

وبعبارة أخرى: يجب أن تكون لنا مدارسنا المعبرة عنا في هذه العلوم:

(المدرسة الإسلامية في علم النفس)[1].

و (المدرسة الإسلامية في علم الاجتماع).

و (المدرسة الإسلامية في علم التربية).

و (المدرسة الإسلامية في علم التاريخ).

وهكذا في سائر العلوم الإنسانية والاجتماعية. وهذا واجب علينا وجوب كفاية، حتى بحق (أمة وسطاً) ونكون ــ كما أراد الله لنا ــ شهداء على الناس.

---

(١) أوثر هذا التعبير (المدرسة الإسلامية في علم كذا) بدل تعبير (علم النفس الإسلامي) أو (علم الاجتماع الإسلامي) ونحوها.



obeikandl.com

## العلم المباح والعلم المذموم

ومن أقسام العلم التي ذكرها الغزالي في (الإحياء): العلم المباح شرعاً، والعلم المذموم شرعاً.

### العلم المباح:

أما العلم المباح، فضرب له الغزالي رحمه الله مثلاً بالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، والعلم بتواريخ الأخبار وما يجري مجراه.

وهذا إذا كان بالنسبة للأفراد فهم مسلّم، فهو في حقهم من المباح، الذي يمكن أن يتحول إلى طاعة بالنية الصالحة، بمعنى أن يقصد بتعلمه خدمة الدين، وإرضاء الله تعالى، وقد يصبح تعلمها واجباً على بعض الناس، لاعتبارات معينة، كما بينا في كتابنا (ثقافة الداعية): أن الدراسة اللغوية والأدبية، والدراسة التاريخية ــ وخصوصاً التاريخ الإسلامي ــ بدءاً من السيرة النبوية وتاريخ الراشدين، وتاريخ العلماء والمصلحين ــ ودراسة العلوم الإنسانية... كلها من الأدوات الضرورية للداعية. فهي واجبة وجوب الوسائل، أي إنها من (العلوم الآلية).

وأما بالنسبة للأمة ــ والحديث عن الفروض الكفائية الواجبة عليها ــ فأعتقد أن دراسة الأشعار والأدب ــ بفنونه المختلفة، ومنها: النقد الأدبي ــ وكذلك دراسة التاريخ ــ بتخصصاته المتعددة، وشعبه المتنوعة ــ من الفروض الكفائية على الأمة، فلا بد أن يوجد فيها متخصصون ملتزمون في هذه

المجالات، يعبرون عن فلسفة الأمة وقيمها وحضارتها، ويجعلون من دراستهم أداة بناء لها لا مِعْوَلَ هدم لكيانها.

ولو ترك هذا المجال فارغاً لملأه المتغربون، الذين تتلمذوا على خصوم الإسلام، وتكونت مفاهيمهم خارج أرض الأمة، وهذه الفئة لا تهتم بدينها ولا قيمها، ولا برسالتها ولا تراثها، بل تعادي ذلك كله.

وهذا ما عانيناه من ذوي الغرض والهوى من المستشرقين من الغربيين، والمستغربين من أبنائنا، الذين لم يتحصنوا بالعلم النافع، والإيمان الصادق، والخلق المتين، من المنتمين إلى اليسار من الماركسيين، أو إلى اليمين من الليبراليين، وكلاهما من العلمانيين، الذين يؤمنون بعزل الدين عن الحياة، إن لم يحارب بغير هوادة.

وكل علم من فروض الكفاية على الأمة، يعتبر تحصيله من المباح المشروع بالنسبة للأفراد، إذا وجد عدد كاف يقوم بفرض الكفاية، ويسدون الحاجة، بل يصبح هذا الأمر الجائز المباح قربة وعبادة لله، إذا صحت فيه النية وابتغي به وجه الله عز وجل.

**العلم المذموم:**

وذكر الإمام الغزالي هنا: المذموم من العلم، ومثل له بعلم (السحر والطلسمات)، وعلم (الشعوذة والتلبيسات).

وهذا صحيح... فقد ذكر الله السحر في كتابه وذمه أبلغ الذم، وقال على لسان الملكين اللذين يعلمان الناس السحر: ﴿نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقال في شأن تعلمه: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

واعتبر النبي ﷺ السحر من السبع الموبقات[1]، أي المهلكات للفرد والجماعة في الدنيا وفي الآخرة.

ومثل ذلك كل علم لا يقوم على أساس صحيح، أي لا يسنده حسّ ولا عقل ولا نقل، أو لا ينفع الناس في دينهم ولا دنياهم، بل يعود عليهم بالضرر المادي أو المعنوي.

ومن ذلك: علم التنجيم: الذي يُدَّعى فيه معرفة الغيوب، وكشف المستقبل بواسطة النجوم، فهذا محرم، لأنه ضرب من السحر، كما جاء في الحديث الذي رواه ابن عباس: عن النبي ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد»[2].

فهذا العلم لا يقوم على أساس منطقي أو تجريبي، وإن صدق فبالاتفاق والمصادفة، ولذا قيل: كذب المنجمون ولو صدقوا!

وهذا بخلاف «علم الفلك» المبني على أسس رياضية وتجريبية، وقد برع المسلمون فيه أيام ازدهار حضارتهم، وبرع الغربيون فيه اليوم، وعلى أساسه استطاعوا الوصول إلى القمر، ويحاولون الوصول إلى الكواكب الأبعد.

أما (الشعوذة والتلبيسات) فليست علماً من العلوم، يقوم على أي أساسه من منطق العلم أو الحس أو الوحي، وإنما هي ــ كما يقول اسمها ــ أمور تقوم

---

(١) في حديث أبي هريرة المتفق عليه (اجتنبوا السبع الموبقات) وعد منها: السحر.

(٢) رواه أحمد في مسند ابن عباس برقم (٢٠٠٠) وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح وأبو داود في الطب (٣٩٠٥) وابن ماجه في الأدب (٣٧٢٦) عن ابن عباس وصححه النووي في (رياض الصالحين) وانظر: كلام الإمام الخطابي على الحديث في (معالم السنن): (٥/ ٣٧١، ٣٧٢) والحافظ المنذري عليه في (الترغيب والترهيب). انظر: كتابنا (المنتقى) الحديث (١٨٥٩).

على التمويه والتزوير والتلبيس. فهي أولى أن تنسب إلى الجهل، لا إلى العلم، فإن العلم منها براء.

ومن العلم المذموم: كل علم لا يقوم على أساس صحيح، لا من تجربة تقوم على الحس، ولا من برهان يقوم على العقل، ولا من دليل نقلي يستند إلى الوحي، إنما يعتمد على الأوهام والخرافات التي تروج بين العوام، وأشباه العوام، كالذي يروجه كهنة الأديان الوثنية وأمثالهم، ومثل ذلك المعارف التي تقوم ــ في أصولها ــ على محض الظنون والتخرصات، مثل علم (تحضير الأرواح) ونحوه، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً. فما بالك بما هو أضعف من الظنون، وهي الأوهام؟!

* * *

## واجبات طلبة العلم

**الفقه وحُسْن الفهم:**

أول واجبات العلم على طالبه أو صاحبه: أن يبذل فيه جهده، حتى يحكمه ويتقنه ويهضمه، وينتقل به من مرتبة «العلم» إلى مرتبة «الفقه». الفقه بالمعنى القرآني والنبوي لا بالمعنى الاصطلاحي، الذي معناه تحصيل علم الفروع على مذهب من المذاهب.

والفقه بهذا المعنى المنشود أخص من العلم، لأن معناه لغة: دقة الفهم والتفطن وحسن الإدراك، ومقتضى هذا ألا يقف عند الظواهر، وإنما يغوص إلى المقاصد، وألاَّ تشغله الألفاظ عما وراءها من معان، وألاَّ تغرقه الجزئيات فينسى الكليات.

والقرآن طلب منا النفير للتفقه في الدين لا لمجرد التعلم، فقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢].

والحديث النبوي المتفق عليه يقول: «مَنْ يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[1].

وأول مراتب هذا الفقه: أن ينتقل من الرواية إلى الدراية، من الحفاظ إلى الفهم، فيفهم عن الله ورسوله مرادهما، ويسأل أهل العلم ويحاورهم حتى يفهم ويفقه.

---

(١) متفق عليه عن معاوية، كما في «اللؤلؤ والمرجان» (٦١٥).

وقد قال سَلَفنا: ليس العلم بكثرة الرواية، إنما هو نور يقذفه الله في القلب.

وفي الحديث الشريف: «رُبَّ حامل فقه ليس بفقيه»[1].

والقرآن الكريم قد صوَّر لنا الذي يحمل العلم ولا يفقهه ولا يفهم أسراره، بالحمار الذي يحمل نفائس الأسفار (أي الكتب: ولا يدري عما تحتويه شيئاً، وهذا ما وصف به القرآن اليهود في عصر النبوة حين قال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

وفي حديث الصحيحين عن أبي موسى[2] تشبيه العالم الفاهم المعلِّم بالأرض الطيبة التي قبلت الماء الذي نزل عليها من السماء، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير، وانتفع الناس بها، كما شبَّه العالم الراوي بالأرض التي لم تقبل الماء، ولكنها احتفظت به، فشرب الناس منه، وسقوا وزرعوا، ففرَّق الحديث بين العلماء الوعاة، والعلماء الرواة، ومن هنا ركز علماء السَّلَف على الدراية أكثر من الرواية[3].

إن آفة كثير من المشتغلين بعلم الدين خاصة هو «الحرفية» في فهم

---

(١) جزء من حديث روي بصيغ مختلفة عن زيد بن ثابت وابن مسعود وأنس وغيرهم، وستأتي بعض صيغه. انظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦٧٦٣ ــ ٦٧٦٦).

(٢) نص الحديث: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة أخرى، إنما هي قيعان، لا تمسك الماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِم وعلَّم، ومثل مَنْ لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله، الذي أرسلت به» (متفق عليه) ــ اللؤلؤ والمرجان (١٤٧١).

(٣) انظر تقديم الفهم على الحفظ، والمقاصد على الظواهر، والاجتهاد على التقليد، من كتابنا «في فقه الأولويات» ص (٦٦ ــ ٧٢).

نصوصه، وجمودهم على ظواهر ألفاظه، وعدم وقوفهم على أسراره، لأنهم دون هذه المرتبة بحكم مؤهلاتهم العقلية والنفسية، ولكن مشكلاتهم أنهم يضعون أنفسهم في زمرة «الأئمة»، ويتصدرون الصفوف للدعوة، والتعليم والإفتاء!

وهؤلاء عادة يعوقون عملية الترشيد للمجتمعات، ويقفون عقبة في طريق الإصلاح والتجديد الإسلامي، وكثيراً ما شكا منهم المجدِّدون الأُصلاء قديماً وحديثاً.

ولقد رأيناهم أشد على دعاة التجديد والإصلاح من «العلمانيين» وخصوم الدين في بعض الأحيان، وقديماً قالوا: عدو عاقل خير من صديق أحمق.

* * *

**الترقي عن التقليد:**

وثاني مراتب الفقه المطلوب: أن يرقى طالب العلم عن التقليد للغير، إلى الفهم المستقل، وأن يفكر برأسه هو لا برأس أحد سواه، حياً كان أو ميتاً، فإن الله منحه العقل ليتفكر به ويتدبر، لا ليجمده ويعطله.

وقد قال الإمام ابن الجوزي كلمة مضيئة ينبغي أن نعيها لتروى، ونرويها لتُحفظ، ونحفظها لتنفذ، قال في ذم التقليد والمقلِّدين في كتابه «تلبيس إبليس»: «اعلم أن المقلِّد على غير ثقة فيما قلَّد، وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه خُلِق للتدبر والتأمل، وقبيح بمن أعطي شمعة أن يطفئها ويمشي في الظلمة»!

وعلماء المسلمين المحققون لم يعتبروا التقليد علماً، إنما العلم ما جاء عن طريق الحجة والاستدلال.

لقد شنَّ القرآن حرباً عنيفة على «المقلِّدين» الذين حقروا أنفسهم، وألغَوْا

عقولهم، متبعين أجدادهم وآباءهم، أو سادتهم وكبراءهم، فيما اعتقدوه من عقائد، وما اعتنقوه من أفكار، وسفَّههم القرآن أبلغ تسفيه في سور عدة من القرآن المكي والمدني.

ويكفينا قوله تعالى في ذم تقليد الآباء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۖ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧٠ ــ ١٧١].

وفي ذم تقليد الكبراء قوله سبحانه ــ على لسان أهل النار ــ: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧ ــ ٦٨].

وفي سورة الأعراف تتحدث الآية عن أهل النار، وتَلاوُم الأتباع والمتبوعين فيها وتلاعنهم، فتقول: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: ٣٨].

والتقليد ــ ما يعرِّفونه ــ أن تأخذ قول الغير بغير حُجَّة بيِّنة تؤيده، فربما لم تكن معه حُجَّة قط. وربما كانت معه حُجَّة واهية لا تقف أمام حجج من يعارضه. ومصدر ذلك: التعظيم أو التقديس لذلك الغير، أضفاه عليه المقلِّد التابع، فرضي لنفسه أن يكون ذيلاً، وقد خلقه الله رأساً، وأن يكون عبداً في فكره، وقد خلقه الله حراً.

واتباع الوحي ليس من التقليد في شيء، بعد أن ثبت بالبراهين العقلية القاطعة نبوة النبيّ، وإلهية القرآن، بعد ثبوت ربوبية الرب الخالق المعلِّم الأكرم، وثبوت إلهية الإله العليم الحكيم، الرحمن الرحيم الذي ينافي حكمتَه

ورحمتَه أن يدع خلقه هملاً، ويتركهم سدى.

وبعد ثبوت الوحي بالقواطع العقلية، يعزل العقل نفسه ــ بتعبير الإمام الغزالي ــ ليتلقى الهداية الإلهية التي تصحح للعقل أخطاءه، وتهديه فيما ليس له إليه سبيل من الإلهيات والغيبيات، وتضع الموازين والضوابط فيما يحتاج إليه، وتدع له حق التفسير والتعليل فيما أنزل إليه، مهتدياً بما بُيِّن له من ضوابط.. وتطلق له العنان في اكتشاف ما في الكون وتسخيره، بعقل المؤمن، وتفكير المهتدي بهُدَى الله.

إن أشد شيء على العقل خطراً ــ بعد اتباع الهوى ــ هو التقليد الأعمى، الذي لا نزال نراه في حياتنا في صور شَتَّى.

فهناك مَنْ باعوا عقولهم ــ أو تنازلوا عنها بغير ثمن ــ لغيرهم ممن يعظمونهم من القدماء أو المحْدَثين.

هناك من المشتغلين بالفقه مَنْ باعوا عقولهم أو تنازلوا عنها، لأئمتهم المتقدمين، أو شيوخهم المتأخرين من الفقهاء.

وهناك من المشتغلين بالكلام والعقائد مَنْ باعوا عقولهم أو تنازلوا عنها لأئمتهم أو شيوخهم من السَّلَف أو الخَلَف.

وهناك من المشتغلين بالسلوك والتصوف مَنْ باعوا عقولهم لأئمتهم أو شيوخهم، وتركوا أنفسهم بين أيديهم كالميت بين يدي الغاسل.

وفي مقابل هؤلاء نجد آخرين من المغتربين، باعوا عقولهم أيضاً أو تنازلوا عنها ــ بغير ثمن ــ لأئمتهم وشيوخهم في الغرب!

دعاة «الليبرالية» باعوا عقولهم لأئمة الليبراليين طالبين منا أن نتبعهم في الخير والشر، والحلو والمر، وما يُحمد وما يُعاب.

ودعاة «الماركسية» ــ التي هُزِمت في عقر دارها ــ باعوا عقولهم لشيوخ

الماركسية وأئمتها، وطالبونا أن نتخذ فلسفتها مصدراً للهداية والتشريع.

وكل دعاة الأيدلوجيات والفلسفات الوضعية المختلفة باعوا لها عقولهم، ودَعَوْنا إلى أن نلغي عقولنا معهم، لنتبع مناهجهم وأهدافهم شِبراً بشر، ولم يحاول هؤلاء ولا أولئك أن يحرروا عقولهم من التبعية، وأن يمتحنوا مذاهب أئمتهم، وأفكار سادتهم وكبرائهم، ويعرضوها على قواعد العقل، وثوابت الوحي، ليعرف صحيحها، من زيفها، وجيدها من رديئها، وحقها من باطلها، فيهتدوا بالحق، ويعرضوا عن الضلال.. ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

إن الواجب على المسلم: أن يطلب الحق ويعرفه بالدليل الذي يقتنع به عقله، ويطمئن إليه قلبه، وأن يكون أسير الحجة لا الهوى ولا التقليد الأعمى، وأن يحرر عقله من العبودية للآخرين، الغرباء في المكان، أو الغرباء في الزمان.

لا يجوز للغرباء أن يتحكموا في أهل الدار، ولا ينبغي للأموات أن يحكموا الأحياء، وأن يفتوا في أخصِّ أُمورهم، وهم في بطون قبورهم!

* * *

**العمل بالعلم:**

ومن واجب العلم على صاحبه: أن يعمل بموجبه، فالعلم بالعبادات يقتضي أن يؤديها على وجهها، مستوفية شروطها وأركانها، خالصة لوجه الله تعالى. والعلم بالمعاملات يقتضي أن يقوم بها في حدود الحلال، بعيدة عن الحرام، مستكملة الشروط والأركان. والعلم بالأخلاق يقتضي أن يتحلَّى بفضائلها ويتخلَّى عن رذائلها. والعلم بطريق الآخرة، يقتضي أن يعد لها عدتها،

ويسعى لها سعيها، ويحذر من قواطع الطريق التي تعمل على أن تثبط إرادته، وتعوق حركته.

ولا يقتصر هذا على علم الدين وحده، بل يشمل علوم الدنيا كذلك، فالطبيب الذي يحاضر أضرار التدخين وهو يدخن، والاقتصادي الذي يحذر من الإسراف في الاستهلاك، وهو مسرف، والاجتماعي الذي يطالب بالمشاركة في خدمة المجتمع، وهو يعيش لنفسه. كل هؤلاء لم يعملوا بمقتضى علمهم، وهم في موضع الذم عند الله وعند الناس. والواجب على كل منهم أن يعمل بمقتضى علمه، وأن يكون في ذلك أسوة لغيره.

وبهذا يكون العلم حُجَّة له، لا حُجَّة عليه، ويستطيع أن يجد للسؤال جواباً إذا سُئِل يوم القيامة «عن علمه: ماذا عمل فيه»؟

فعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدماً عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره: فيم أفناه؟ وعن علمه: فيم فعل فيه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه: فيم أبلاه؟»[1].

ولا يكون كذلك العالم الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، وأخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فضربه الله مثلاً بالكلب في أسوأ صورة له: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥ ــ ١٧٦].

وإنما ينتصر الدين، وترتقي الدنيا، بالعلماء العاملين، الذين يؤيد عملهم علمهم، وتصدق أفعالهم أقوالهم، فهم يؤثرون في الناس بسلوكهم وحالهم،

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١٩) وقال: حسن صحيح، وعن معاذ بن جبل نحوه، رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح، كما قال المنذري في «الترغيب والترهيب» التقى: (٢٢٥٥).

أكثر مما يؤثرون بكلامهم، ولهذا قيل: حال رجل في ألف رجل، أبلغ من مقال ألف رجل في رجل

وإن من شر ما تُبتلى به الحياة، ويُبتلى به الناس: العالم الذي يناقض عمله علمه، ويكذب فعله قوله، فهو فتنة لعباد الله، وهو الذي حذَّر القرآن منه أهل الإيمان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف: ٢ ــ ٣].

ووبَّخ القرآن بني إسرائيل بقوله: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤ ﴾ [البقرة: ٤٤].

ولا غرو أن استعاذ النبي ﷺ من العلم الذي لا ينفع.. فعن زيد بن أرقم: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قبل لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»(١).

وعن أسامة بن زيد: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلقُ أقتابه (أي تخرج أمعاؤه من مكانها)، فيدور بها، كما يدور الحمار برحاه، فتجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان؛ ما شأنك؟ ألستَ كنت تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنتُ آمركم بالمعروف، ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه»!

قال أسامة: وإني سمعته ــ عليه الصلاة والسلام ــ يقول: «مررتُ ليلة أسرِيَ بي بأقوام تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟

---

(١) رواه مسلم والترمذي والنسائي، وهو قطعة من حديث، انظر: المنتقى من الترغيب والترهيب ــ حديث (٨٣).

قال: خطباء أُمَّتك الذين يقولون ما لا يفعلون»![1]!

وصوَّر النبي ﷺ العالم الذي ينفع الناس بعلمه ولا ينتفع به تصويراً بليغاً، حين قال: «مثل الذين يُعلِّم الناس الخير وينسى نفسه، كمثل الفتيلة (يعني: السراج، أو الشمعة) تضيء للناس، وتُحرق نفسها»![2].

وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللِّسان»![3].

وسر هذا الخوف: أن هذا المنافق مزوَّق الظاهر، خرب الباطن، حلو اللِّسان، مُر العمل، فهو يغر الناس بظاهر علمه، يسحرهم بمعسول كلامه، وقلبه خاوٍ من اليقين. فالمنافق الجاهل ليس من ورائه خطر يُذكر، إنما الخطر في هذا المنافق العليم اللِّسان.

وعن عمر بن الخطاب قال: حذَّرنا رسول الله ﷺ من كل منافق عليم اللسان[4].

ولهذا كان عمر كثيراً ما يستعيذ بالله من المنافق العليم، وقد سئل: كيف يكون منافقاً وعليماً؟ قال: عالم اللِّسان جاهل القلب!

وقال عليُّ بن أبي طالب: قصم ظهري رجلان: جاهل متنسِّك، وعالِم متهتِّك، ذاك يغر الناس بتنسكه، وهذا يضلهم بتهتكه!

---

(١) الحديث بشقيه متفق عليه، واللفظ لمسلم، انظر: المنتقى ــ حديث (٨٤).

(٢) رواه الطبراني عن أبي برزة، وجندب ــ صحيح الجامع الصغير (٥٨٣٧).

(٣) قال المنذري: رواه الطبراني في الكبير والبزار، ورواته محتج بهم في الصحيح، انظر: المنتقى ــ حديث (٨٧). وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (١/ ١٨٧).

(٤) رواه أحمد في المسند، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح ــ الحديث (١٤٣)، (٣١٠)، وقال الهيثمي (١/ ١٨٧): رواه البزار وأحمد وأبو يعلى ورجاله موثقون.

**تعليم العلم ونشره في الناس:**

ومن حق العلم على العالم: أن يُعلِّمه للآخرين، فقد علَّمنا الإسلام أن في كل نعمة زكاة، فإذا كانت زكاة المال أن تنفق منه للمحتاجين، فإن زكاة العلم أن تُعلِّمه للآخرين، وهذا هو شأن «الربَّانيين» الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٧٩].

ولهذا قال السلف: الربَّاني هو مَنْ يتعلم، ويعمل، ويُعلِّم.

ورووا عن المسيح قوله: مَن عَلِم وعمل وعلَّم، فذاك يُدعى عظيماً في ملكوت السماء!

وفي صحيح البخاري عن عثمان أن النبي ﷺ قال: «خيركم مَن تعلَّم القرآن وعَلَّمه».

ولقد تعلَّمنا من القرآن: أن الله تبارك وتعالى هو المعلِّم الأول لخلقه، فهو الذي ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ٥]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١ ــ ٤]، وهو الذي علَّم أنبياءه ورسله ليعلِّموا أُممهم، فعلَّم آدم الأسماء كلها، وعلَّم إبراهيم، وعلَّم يعقوب، وعلَّم يوسف من تأويل الأحاديث، وعلَّم موسى، وداود وسليمان والمسيح، وعلَّم محمداً ما لم يكن يعلم.

وكان هؤلاء الرسل مُعلِّمين لأقوامهم، مُبلِّغين عن ربهم، مبشِّرين ومنذرين، وآخرهم محمد، الذي ذكر الله رسالته في أربع آيات من كتابه يبين فيها أن مهمته الأساسية مهمة تعليمية تزكوية، ويكفي أن نقرأ قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: ١٥١].

فعن أبي أُمامة قال: ذُكِر لرسول الله ﷺ رجلان، أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «فضل العالِم على العابد كفضلي على أدناكم»، ثم قال: «إنَّ الله وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليصلُّون على مُعلِّم الناس الخير»(١).

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلَّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها»(٢).

والحسد يُطلق ويُراد به تمني زوال النعمة عن المحسود، وهذا حرام ما لم يكن يستخدمها في معصية الله. ويُطلق ويُراد به: الغبطة، وهو: أن يتمنى أن يكون مثله، وهذا محمود، وهو المراد هنا.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢].

فهم يتفقهون في الدين ليُنذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، والإنذار: تعليم وإرشاد مقرون بالترغيب والترهيب.

وقد حثَّ رسول الله ﷺ أصحابه على أن يُبلِّغوا عنه كل ما يأخذونه عنه من قرآن أو حديث.

روى عنه عبد الله بن عمرو: «بلّغوا عني ولو آية»(٣).

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٦) وقال: حسن صحيح غريب، ورواه البزار مختصراً عن عائشة: «معلِّم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر»، وقال الهيثمي (١/١٢٦): رواته موثقون.

(٢) متفق عليه عن ابن مسعود.

(٣) رواه البخاري وأحمد والترمذي صحيح الجامع الصغير: (٢٨٣٧).

وروى عنه ابن مسعود: «نضَّر الله امرءاً سمع منا شيئاً، فبلَّغه كما سمعه، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع»[1].

وروى عنه جبير بن مطعم: «نضر الله عبداً سمع مقالتي، فحفظها ووعاها، وبلَّغها مَن لم يسمعها، فرُبَّ حامل فقه لا فقه له، ورُبَّ حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه»[2].

نبَّه الحديث على أن حامل العلم قد يحفظه، ولكنه غير قادر على الاستنباط منه، فهو ينقله إلى غيره ممن هو أفقه وأقدر على استخراج الحكم منه. فيشاركه في الأجر.

وكل مَن علَّم العلم أو بلَّغه ونشره، فله أجر من انتفع به، إذا صحَّت بذلك نيته، وابتغى وجه الله فيه، فعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «مَن دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أُجور مَن تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»[3].

وقال النبي ﷺ لعليّ: «فوالله لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حُمْر النَّعم»[4]. والنعَم: الإبل. وحُمْرها: أغلاها وأنفسها عند العرب.

وقال عليه الصلاة والسلام: «على خلفائي رحمة الله» قيل: «ومَن

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٩) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢٣٠)، وأحمد (١/ ٤٣٧)، وابن حبان الموارد: (٧٤، ٧٥)، وقد روي هذا الحديث عن عدد من الصحابة.

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والطبراني من طريق محمد بن إسحاق، وله عند أحمد طريق عن صالح بن كيسان عن الزهري، وإسنادهما حسن كما قال المنذري في الترغيب. انظر: المنتقى ــ حديث (٦٠)، وابن ماجه (٣٠٥٦)، و مجمع الزوائد: (١/ ١٣٩)، ورواه أيضاً الحاكم وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (١/ ٨٦ ــ ٨٨).

(٣) رواه مسلم (٢٦٧٤).

(٤) متفق عليه عن سهل بن سعد.

خلفاؤك؟ قال: «الذين يحيون سُنَّتي ويُعلِّمونها عبادَ الله»[1].

وهكذا مضى الربَّانيون من علماء الأُمَّة هداة معلِّمين، لا يضنون بعلم على مَن طلبه، بل يكرهون أن يحيوا ولا يستفيد منهم أحد.

قال عطاء: دخلتُ على سعيد بن المسيِّب، وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: ليس أحد يسألني عن شيء!

وقدم سفيان الثوري عسقلان، فمكث أياماً لا يسأله إنسان. فقال: اكْرُوا لي (أي: استأجروا لي دابة) لأخرج من هذا البلد. هذا بلد يموت فيه العلم!

وقال الحسن: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم! أي أن العلماء يخرجونهم بالتعليم من حد البهيمة إلى حد الإنسانية.

وقال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأُمَّة محمد من آبائهم وأُمهاتهم، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، وهم يحفظونهم من نار الآخرة.

وكل من ساهم بجهد أو مال في نفع الناس بالعلم: بالنسخ أو الطباعة أو النشر، أو وقف الكتب، أو إنشاء المكتبات، أو نشر الأشرطة المسموعة والمرئية، أو استخدام شبكة الانترنت ونحوها ــ ناهيك بإنشاء المادة العلمية وتأليفها شفاهاً أو كتابة ــ كل هؤلاء لهم نصيبهم من الأجر على قدر نيتهم. ولا يضيع الله أجر من أحسن عملاً.

* * *

(١) قال الحافظ العراقي: رواه ابن عبد البر في العلم، والهروي في ذم الكلام من حديث الحسن. فقيل: هو ابن عليّ، وقيل: ابن يسار فيكون مرسلاً. ولابن السني وأبي نعيم في «رياضة المتعلمين» من حديث عليّ نحوه.

## وجوب البيان وتحريم الكتمان:

وكما يحرم على الإنسان أن يقول ما لا يعلم في دين الله، فإنه يحرم عليه أن يكتم ما يعلم، مما ينفع الله به الناس من البيِّنات والهدى، فإن زكاة العلم ــ كما ذكرنا ــ نشره وبثه، لا كنزه وحبسه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٩ ــ ١٦٠].

والآيتان نزلتا في شأن أهل الكتاب من أحبار اليهود ورهبان النصارى، الذين كتموا صفات النبي ﷺ في كتبهم، بالحذف أو الإخفاء، أو التحريف. ولكن اللَّفظ عام يشمل كل مَن كتم من دين الله علماً يُحتاج إلى بثه.

فلا يجوز للعالم بحال أن يقصد إلى كتمان العلم النافع، ومَن قصد ذلك فهو عاصٍ آثم، وإذا لم يقصد إلى الكتمان وكان في الناس مَن يقوم بواجب البيان والتبليغ والدعوة، فقد رُفع عنه الإثم، فإن البيان فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الحَرَج عن الباقين، وهذا إذا كان عدد المبلِّغين والدعاة من الكفاية بحيث تكون منهم «أُمَّة» أي جماعة وقوة، كما أمر الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ويتعين البيان على العالِم إذا سأله سائل يسترشد عن أمر من أمور دينه العاجلة، ممّا لا يسعه تأخيره، ولا يحل له الكتمان هنا، اتكالاً على غيره، حتى لا يضيع المسلم بين هذا وذاك، ما لم يكن ذلك فوق طاقته وقدرته.

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ سُئِل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»[1].

ذلك أن من حق السائل المتعلم على العالِم أن يجيبه ويعلِّمه، ما لم يكن متعنتاً ولا متنطعاً، يتتبع الغرائب وأُغلوطات المسائل، فقد ورد النهي عن هذه الأغلوطات، وأدَّب عمر سائلاً عُرِف بذلك.

كما يحرم على العالِم المسلم: السكوت عن البيان العلمي باللِّسان أو القلم إذا ترتب على سكوته التباس الحق بالباطل، واشتباه الحلال بالحرام، واختلاط المعروف. بالمنكر، فيلزمه هنا البيان، إزالة للَّبْس، وإيضاحاً للحق، فإن البيان هنا من باب الشهادة التي يحرم كتمانها: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وقد ضرب القرآن لنا مثلاً بعلماء السوء من اليهود والنصارى الذين كتموا ما أنزل الله، ابتغاء عَرَض الدنيا، فلعنهم الله، ليكون ذلك لنا عبرة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧]. ، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة: ١٧٤ ــ ١٧٥].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسَّنه، وابن ماجه وابن حبان في صحيحيهما، والبيهقي، والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

وإن في هذا الوعيد الشديد لتذكرة لمن يلبسون لباس العلماء، من الذين يجاورون الملوك الفاسقين، والرؤساء الظالمين، ويكتمون الحق وهم يعلمون، فكيف بالذين يحلُّون لهم الحرام، ويسقطون عنهم الفرائض، ويمدونهم بالفتاوى الجاهزة لكل بدعة يبتدعون، ولك منكر يقترفون؟!

**تحريم نشر العلم أو الفكر الضار:**

وإذا كان تعليم العلم النافع ونشره على أوسع نطاق: واجباً شرعاً، وكان كتمانه عن طالبه والمحتاج إليه حراماً يوجب اللعنة على كاتمه، فإن نشر العلم أو الفكر الضار بالناس في دينهم أو دنياهم: حرام ومنكر، وتجب مقاومته، حماية للناس من شره.

وهذا واجب الراسخين من أهل العلم والفكر، وواجب الدولة معهم.

وإذا كانت الدولة تحمي مواطنيها من (المخدرات) التي تغيب عقولهم، وتدمر شخصيتهم، فأوجب عليها أن تحميهم من سموم (المخدرات العقلية) التي تغيب وعي الناس بحقائق الدين والحياة والكون والإنسان، والتي تضللهم عن الغاية، وتبعدهم عن الطريق القويم.

ومن ذلك: الكتب التي تنشر الأساطير والخرافات باسم الدين، مما لا يعتمد على عقل صريح أو نقل صحيح، وإنما عمدتها: الأحاديث الموضوعة، والحكايات المكذوبة، والإسرائيليات المضللة، والمبالغات المرزولة.

ومنها: كتب دعاة (التنصير) وأشباههم، الذين يلفقون الأكاذيب حول الإسلام وبنيه، وكتابه، وعقيدته، وشريعته، ورجاله، وتراثه وحضارته.

ومنها: كتب العلمانيين، ودعاة (الغزو الفكري) الذين يريدون أن يسلخوا الأمة من جلدها، ويخرجوها من هويتها، حتى تتنكر لدينها وقيمها ومواريثها الثقافية، وبذلك يسهل اختراقها من داخلها، وتحويلها إلى أمة أخرى تدور في

فلكهم، وتسير في ركابهم. وبهذا تجد توافقاً بين هذا الفريق والذي قبله، لأن الوجهة واحدة: تغيير هوية الأمة.

يعمل هؤلاء وأولئك على زعزعة العقيدة، وتشويه الشريعة، وتمييع السلوك، والنتيجة: تحطيم روح الأمة، وإذابة مقوماتها، وتهديم حصونها من الداخل.

لا يكتفي هؤلاء بالكتب لنشر أفكارهم المسمومة، بل يعتمدون كل الوسائل الممكنة، مشروعة أو غير مشروعة، من الكلمة المقروءة، والكلمة المسموعة، والكلمة المرئية، وشبكة الانترنت، ويسخرون الأجهزة الحديثة لغايتهم، من الصحافة والإذاعة والتلفاز والمسرح والسينما، وغيرها فهم يحملون وزرهم ووزر من أضلوه إلى يوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وفي الحديث الصحيح: «من دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها يوم القيامة» رواه مسلم.

وعلى علماء الأمة ومفكريها: أن يكشفوا زيف هذا الفكر، ويبينوا عواره وبطلانه، إذا أتيحت له الفرصة للظهور، كما هو مشاهد اليوم، حتى إنه تمكن من بعض الأجهزة وسيرها لحسابه، تسنده في ذلك قوى خفية وظاهرة من الداخل والخارج.

ولكن مناعة الأمة الذاتية أقوى، إذا وجدت من يبصرها ويضيء لها الطريق، من العلماء العاملين، والدعاة الصادقين، وهم موجودون أبداً ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٨٩].

* * *

**الوقوف عندما يعلم:**

ومن الواجبات المفروضة على العالِم: أن يقف عند حدود علمه، ولا يتطاول إلى ما ليس من شأنه، ولا في طاقته. كالعلم بكُنْه الذات الإلهية، فإن الإنسان قد عجز عن معرفة كُنْه نفسه، فكيف يطمع في معرفة كُنْه ربه عَزَّ وجلَّ؟ وقد قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠].

وكذلك معرفة الغيب المطلق الذي استأثر الله بعلمه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

ومن ذلك: علم الساعة الذي لم يطلع الله عليه مَلَكاً مقرَّباً ولا نبياً مرسلاً، وقال النبي ﷺ لجبريل حين سأله عنها: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وأولى بالإنسان أن يدخر طاقته العقلية ليبذلها فيما يستطيعه، وفيما يعود عليه بالخير في دينه ودنياه.

ويجب على العالم المسلم إذا سئل عما لا يعلم، أن يقول: لا أعلم. فليس في العلم كبير، وفوق كل ذي علم عليم. وليس هناك مَن أحاط بكل شيء علماً غير الله سبحانه، وكل بَشَر يعلم شيئاً وتغيب عنه أشياء. وقد سُئِل النبي ﷺ عن أشياء، فلم يجب عنها حتى نزل عليه الوحي.

وقال ابن مسعود: إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون!

وقال غيره: مَن قال: «لا أدري» فقد أجاب. ومَن أخطأ قول: «لا أدري» أصيبت مقاتله!

وكم سُئِل من كبار الأئمة ــ مثل الإمام مالك ــ فلم يستنكف أن يقول: لا أدري.

وكان الصحابة إذا استفتوا أحال كل منهم السائل على صاحبه، خشية من تبعة الفتوى.

وكان ابن عمر يتهيب الفتوى، ويقول لمن سأله: اذهب إلى الأمير فاسأله. ويقول لصاحبه: أتدري ماذا يريد هؤلاء؟ يريدون أن يتخذوا ظهورنا جسراً إلى جهنم!

وبكى بعض علماء السَّلَف، فسئل في ذلك، فقال: استُفتي اليوم مَن لا علم عنده!

فكيف لو شاهد عصرنا، ورأى مَن يُستَفتَون، ومَن يُفتُون؟!

ولقد ابتلينا في عصرنا ببعض المجترئين الذين استباحوا حمَى الشريعة، وأمسَوْا يحلِّلون ويحرِّمون، ويوجبون ويسقطون، ويُبدِّعون ويُفَسِّقون، بل يُكَفرون، لمجرد أنهم قرؤوا بعض الكتب لبعض العلماء وفي بعض العلوم، ولم يعيشوا في جو العلم، ولا طلبوه من شيوخه، ولم يتقنوا أدواته، ولم يملكوا مفاتيحه، ومع هذا أفتَوْا في أعوص المسائل، وحكموا في أغمض القضايا، واعترضوا على أكابر العلماء، وطعنوا في أئمة المذاهب، وساوَوْا رؤوسهم برؤوس الصحابة والتابعين، وقال قائلهم: هم رجال ونحن رجال!

وهذا هو الذي يؤذن بضياع الدين، وخراب الدنيا، كما في الحديث

المتفق عليه: «إنَّ الله لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعاً من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالِم، اتخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً، فسُئِلوا، فأفتوا بغير علم، فَضَلُّوا»[1].

وأشد الأمور خطراً: أن يفتي المرء فيما لا يعلمه ويستيقنه من دين الله، فَيُحرِّم أو يُحلِّل بغير بينة وبرهان من ربه، وهنا يكون الإثم على المفتي إذا كان المستفتي مخدوعاً فيه، وإن كان عليه أن يتحرَّى ويبحث عمن يستفتيه في دينه، ويعلم منه شرع ربه.

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «مَن أُفتِيَ بغير علم كان إثمه على مَن أفتاه، ومَن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره، فقد خانه»[2].

وقد ذكرنا من قبل ما حدث في عهد النبوة أن أصابت رجلاً مسلماً جراحة، ثم أصابته جنابة، فأفتاه بعض الناس بضرورة أن يغتسل، فعمل بفتواهم، فتفاقم جرحه، فمات منه. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال منكراً عليهم: «قتلوه، قتلهم الله!! هلا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه»[3].

فأخبر النبي ﷺ أنهم قتلوه، ودعا عليهم بقوله: «قتلهم الله» فدلنا هذا على أن من الفتاوى ما يقتل، وليس كل القتل قتلاً مادياً، لعل القتل المعنوي

---

(١) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو اللؤلؤ والمرجان: (١٧١٢).

(٢) رواه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة، وحسَّنه في صحيحه الجامع الصغير (٦٠٦٨)، وفي ابن ماجه والحاكم: «من أفتى بفتيا غير ثبت فإنما إثمه على من أفتاه» ــ المرجع نفسه (٦٠٦٩).

(٣) رواه أبو داود، وذكره في صحيح الجامع الصغير (٤٣٦٢).

أشد خطراً من المادي، وأخطر منه قتل الجماعة، وإزهاق روحها بالفتاوى الجاهلة.

**فضائل يجب أن يتصف بها المعلم:**

وعلى المعلم: أن يخلص النية في تعليمه، ويعتبر عمله عبادة يبتغي بها وجه الله، فهو يقوم بوظيفة الرسل، المصطفين في هداية الناس وتعليمهم الخير.

وعليه أن يعتمد منهج التيسير والتبشير، لا التعسير والتنفير، كما أمر النبـي ﷺ أمته، فقد قال: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» متفق عليه.

وقال عليه الصلاة والسلام عن نفسه: «إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً»[1].

وقال لأصحابه: «إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»[2].

ومن التيسير المطلوب: الرفق بالمتعلم، والإشفاق عليه وإن أخطأ، فالمعلم هو الأب الروحي للمتعلم، فيجب عليه أن يصطحب روح الأبوة عند التعليم. كما جاء في الحديث: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»[3]. وروح الأبوة لا تمنع من التأديب، وضرورة التنبيه على الخطأ، وخصوصاً إذا مس حقوق الآخرين وحرماتهم، وينبغي أن يشتد في التنبيه والزجر إذا كان الخطأ يمثل اتجاهاً منحرفاً لمجموعة من الناس، كالتشدد في الدين، وابتداع رهبانية فيه،

---

(١) رواه مسلم عن عائشة في كتاب الطلاق من صحيحه (١٤٧٨).

(٢) رواه البخاري في الوضوء عن أبـي هريرة.

(٣) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث أبـي هريرة.

والخروج عن المنهج النبوي الذي يقوم على اليسر والاعتدال «فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

ومن التيسير في التعليم: أخذ الناس بالتدرج، فينتقل بالمتعلم من السهل إلى الصعب، ومن البسيط إلى المركب، ولذا قال السلف: الرباني الذي يعلم بصغار العلم قبل كباره.

ومن هنا شرع الله لعباده في مكة: العقائد وأصول الفضائل، قبل الدخول في الشرائع والأحكام، وكانت مهمة الرسول الكريم طوال العهد المكي غرس الإيمان الحق وأصول الأخلاق في نفس أصحابه، قبل كل شيء، ليعدهم لحمل الأمانة الكبرى فيما بعد: أمانة التكاليف الإسلامية، والدعوة إليها، والجهاد في سبيلها.

ولهذا لا ينبغي للمعلم الرشيد: أن يخوض بتلاميذه في بحار المختلف فيه، قبل أن يتقنوا المتفق عليه. فإن البدء بالخلافيات يشتت الذهن، ويشوش الفكر.

وإذا كان هناك بعض المعارف فوق طاقة من يعلمهم، فيجب عليه أن يؤجلها، حتى ينضج تفكيرهم، ويتهيأوا لتلقيها، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه، ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

وقال عليّ كرم الله وجهه: حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!

ويجب عليه ألا يكون همه حشو الرؤوس بالمعلومات وحسب، بل تزكية

---

(١) متفق عليه عن أنس.

الأنفس بالفضائل والصالحات، وأن يربي بالقُدوة والحال، أكثر من التربية بالمقال، وبذا يكون من معلمي الناس الخير[1].

* * *

**وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين**

---

(١) انظر: التعليم ومبادئه وقيمه، من كتابنا (الرسول والعلم) ص (١١٤ ــ ١٥٨) نشر مكتبة وهبة.



obeikandl.com